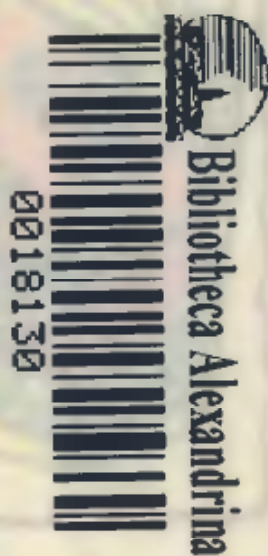


الف ليلة وليلة

حيثن جومير محمد أحمد براف

أمين أحمد العطار



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	١١٤٦
رقم التسجيل	١١٤٦

الف ليلة وليلة
الجزء السابع

عبد الله البري
٩
عبد الله البحري

١٨/١٢
٣٩٥-٢٢
١١-١٢
٢٠١٧

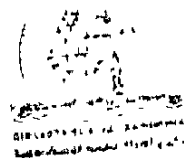
كتبه

محمد أحمد براق

حسن جوهير

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف
General Organization of the
Alexandria Library
(Bibliotheca Aegyptia)

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء السابع

صفحة

- غانم بن أيوب ٥
 - مدينة النحاس ٦٣
 - أبو محمد الكسلان ٩٣
 - عبدالله البرى وعبدالله البحرى ١١٣
 - أنس الوجود والورد فى الأكمام ١٣١
-



غانم بن أيوب

(١)

غانمُ بنُ أيوبَ قتيّ وسيمٌ ، جميل الطلعة ، حسنُ الهيئة ؛ له أختُ
بارعةُ الجمال ، رشيقة ، ممشوقةٌ ، لها طلعةُ البدر ، خفيفةُ الروح ،
حلوةُ النكتة ، لطيفةُ الحديث ، حسنةُ المعشر ؛ بها فتنة . وغانمٌ وأخته
فتنةٌ كان أبوهما من كبار التجار ، ومشهورينهم ؛ كان يرسلُ تجارتَهُ إلى
الهند والسند والصين والعراق ومصر ، فيُقبلُ الحرفاء عليها ، ويدفعونَ
ثمنها ، ويعودُ عليه منها ربحٌ كبيرٌ .

ولما تُوفى هذا الرجلُ تركَ لابنه وابنته مالا كثيرا ، وتجارةً رابحة .
وعند وفاته كان قد ترك من جُملة ما ترك أحمالا من الخبز والديباج ،

ونوافيج المسك مُحَزَّمةً ومُعَدَّةً للتصدير ، ومختومٌ عليها بِرِسْمِ بغداد .
فلما انقضت أيامُ العزاء والحُداد ، عَزَمَ الفتى غانمُ بنُ أيوبَ على
السفرِ بهذه الأحمال التي كان في نيةِ أييه السفرُ بها قبل أن تدركه منيته
للاتجارِ فيها .

فودَّعَ أمَّهُ وأختَه ، وخرجَ بِتِجارَتِهِ متوكِّلاً على الله ، بِصُحْبَةِ جماعةٍ
من الثُّجَّارِ .

وكتبتَ لهمُ السلامة ، فوصلوا إلى بغداد سالمين ، ولم يحدثْ لهمُ ،
ولا لِتِجارَتِهِمْ سوءٌ .

فاستأجرَ غانمٌ له داراً حسنةً ، لها فناء واسعٌ رحيبٌ ، اتخذَه مخزناً
لتِجارَتِهِ ، وأنزَلَ فيه الأحمالَ ، وفرَّشَ بعضَ الغرفِ التي في صدرِ الدارِ
بالبُسْطِ ، وصَفَّ بِجَانِبِ حِيطَانِهَا الأرائكَ ؛ واتخذَ منَ الغرفِ الداخليَّةِ
أما كنَ لنومِهِ هُوَ وأتباعِهِ .

ولما استراحَ من عناءِ السفرِ ، ونَفَضَ عنه وعثاءَهُ ، وانفَضَّ من
استقبالِ وفودِ التجارِ المهتئينِ له بِسلامَةِ الوُصولِ ، عَمَدَ إلى تِجارَتِهِ ،
وَحَلَّ أَحزِمَتَها ، واستخرجَ من كلِّ صِنْفٍ شيئاً ؛ وحمله هو وأتباعه ،
وخرَجوا جميعاً إلى سوقِ الثُّجَّارِ . ولما وصلَ إلى السوقِ تَلَقَّاهُ التجارُ
بالترحيبِ والإكرامِ ، وأنزَلُوهُ في دُكانِ شيخِ السوقِ ، فأخذَ هذا منه
بِضَاعَتَهُ ، وعَرَضَها لِلبيعِ ، فَتَهافَتَ عليها الشارونَ ، وتَنافَسوا في شِرائِها
فبيعتْ بِضِعْفِ ما كان يُقدَّرُ لها من ثمنٍ . ففرَّحَ غانمٌ بهذا الربحِ الوفيرِ .

وصار يأتي كل يوم إلى شيخ السوق ببضاعته ، فتباع في الحال .
 وذات يوم . حضر غانم إلى السوق على عادته ، فوجد بابها مغلقا ،
 فاستعجب لذلك واستفهم عن السبب ؛ فقليل له : إن أحد التجار
 الكبار قد توفاه الله ، وذهب جميع تجار السوق لتشيع جنازته ، فسأل
 عن مكان الجنازة ، فأرشدوه إليه ، فتوجه من فوره للاشتراك فيها .

وسارت الجنازة إلى المقابر خارج المدينة ، وكان أهل الميت قد
 أقاموا سرادقا كبيرا في المقبرة ، لاستراحة المشيعين ، وتقبل عزائهم .
 جلسوا جميعا فيه بعد أن ووري الميت في التراب ، يستمعون إلى تلاوة
 القرآن على ضوء الشموع والقناديل ، وأحضر العشاء ؛ فتعشوا جميعا ؛
 ثم عادوا ثانيا إلى الجلوس في السرداق ، فقلق غانم ، وانشغل ذهنه على
 أمتعته وتجارته التي تركها في منزله من غير حراسة ، وقد شاع بين
 الناس أنها صنوف طيبة ، وسيلع ممتازة ؛ فهي مطمع للطامعين .

وقال لنفسه : إن قضيت الليل بعيدا عن منزلي ، فإني لا آمن
 أن يسطو اللصوص على ما به من مال وأعمال .

فأراد الانصراف ، ولكنه استحي أن ينصرف وحيدا دون باقي
 القوم ، فتعلل بقضاء حاجة ، ثم تسلل عائدا إلى المدينة ، وسار ضارباً
 في الظلام يضل تارة ، ويسترشد أخرى ، حتى وصل إليها ، وكان
 الليل قد انتصف ، وأغلقت الأبواب فتحير في أمره ؛ ووقف خارج
 سور المدينة يفكر :

ماذا يفعل ؟! وإلى أين يذهب ؟! وفي أي مكان يبيت ؟!
وتلفت حوله لعله يجد مكاناً ياجأ إليه ، أو يشاهد شخصاً سائراً
يأتدس به ، أو يرى نَفراً عائداً يسترشد برأيه ؛ ولكنه لم يبصر شيئاً ،
ولم يقع نظره على أحد ، ولم يصل إلى أذنيه غير نباح الكلاب آتياً إليه
من ناحية المدينة ، وعواء الذئاب تردده جوانب الصحراء من الناحية
الأخرى ، فذبّ في قلبه الرعب ، واستولى عليه خوف شديد ، وذعر
ذُعراً لم يدخل قلبه مثله ؛ وتمتم باسم الله ليستمد الاطمئنان ، واستعاذ
به ليعيد إلى قلبه القوة والإيمان ؛ وقال لنفسه : لا حول ولا قوة إلا
بالله . كنت خائفاً على مالي ومتاعى ، والآن أخشى على نفسي ، وأتوقع
ضياغ روحى !!

ولم يجد غانم مذوحة من أن يكرّ راجعاً إلى ناحية المقابر ، فقد يجد
مأوى يأوى إليه ، أو يصل ثانياً إلى المقبرة التي كان بها حيث رجّح أن
القوم لا يزالون جالسين .

وفيما هو سائر يتخبط في الطريق . ويضرب في وحشة الليل ،
وصعوبة الصحراء متلففاً في بجاد من ظلام كثيف ، بعضه فوق بعض ،
إذا أخرج يده لم يكذ يراها . لا يرشده إلى معالم الطريق ، ولا يُجنِّبه
الارتطام بالصخور والأحجار إلا البصيص الضئيل المنبعث من نجوم
السما . فبينما هو كذلك مرّ بسور ربع ، به باب من الحجر الجرانيت
مفتوح فتحة صغيرة فأطل برأسه منها ، فرأى في الدّاخل قبراً تقوم

بجانبه نخلة مرتفعةً بعض الارتفاع ؛ فدفَعَ البابُ بِقُوَّةٍ ، واستطاع
أَنْ يُحرِّكه قليلاً ، فانفَرَجَ عن فَتْحَةٍ يستطيعُ أَنْ ينفِذَ منها
إلى الداخلِ .

فحدَّثَ غانمٌ نفسه : هنا يحسنُ بى أَنْ أنام .

ثم دخلَ وأغلقَ البابَ خلفه ، وتكوَّرَ ورقَدَ بجانبِ القبرِ ، وأغمَضَ
عينيه يَنشُدُ النَّومَ .

ولكن من أىِّ جهةٍ يطرقُ النومُ جَفَنِيهِ ، ووحشةُ المكانِ تكتنفُهُ ،
ورهبَةُ القبرِ يَشْعِرُهَا بِدَنِّهِ ؛ حاولَ أَنْ يَهْدِيَ نفسه ، وَيُسَكِّنَ من
رَوْعِهِ دونَ جَذْوَى ؛ فإنَّ شعورَ الوحشةِ والرَّهْبَةِ كانَ أقوى من أَنْ
تقاومَهُ آيَةُ مُحَاوَلَةٍ لِلتَّهْدِئَةِ والتَّسْكِينِ ، يُحاوِلُهَا وَيُزَيِّنُهَا الْعَقْلُ لِلنَّفْسِ .
فهبَّ غانمٌ قائماً ، وهَرَوَلَ خارجاً من البابِ إلى فضاءِ الصحراءِ ؛ وما كادَ
يُبعِنُ فيها بعيداً حتى رأى نوراً يلوخُ أمامَهُ عن بُعدٍ من ناحيةِ بابِ
المدينةِ . فدَقَّقَ فيه النظرَ بُرْهَةً وهو يظُنُّ أَنَّ عَيْنِيهِ تَخْدَعَانِهِ ، ولكنه
تَيَقَّنَ أَنَّ هَذَا نورٌ ؛ فقد شاهدَ الضَّوءَ يَهْتَزُّ يميناً وشمالاً ، ويقتربُ إلى
ناحيته رُوَيْدًا رُوَيْدًا . فَشَعَرَ بِبَعْضِ الْإِنْسَانِ ، الذى ما لبثَ أَنْ تَحَوَّلَ
إلى شَكٍّ وريبةٍ ، فاستدارَ إلى البابِ الذى خرجَ منه منذُ بُرْهَةٍ ، ودَلِفَ
منه ، وأغلقَهُ من خلفه ، وتعلَّقَ بالنخلةِ فارتقاها ، واختفى بين سَعَفِهَا ،
يرقبُ اقترابَ الضَّوءِ ، وما يَظْهَرُ وِرَاءَهُ ، وينظرُ إلى حاملِ مِشْعَلِهِ ،
وهلْ هو صديقٌ يَرَكُنُ إِلَيْهِ ، أو عَدُوٌّ يَخْشَى بَأْسَهُ .

واقترَبَ الضوء إلى سور القبرِ شيئًا فشيئًا حتى قَرُبَ منه ، فتبين غانمٌ على نورِهِ من فوق النخلةِ ثلاثة عبيد ، اثنان منهم يحملان صندوقًا كبيرًا ، والثالث يحمل مصباحًا وفأسًا . فلما اقتربوا من باب السور ، سَمِعَ غانمٌ أحد حاملي الصندوق يقول مُناديًا زميله مُندَهشًا :

يا صَوَّاب !

فرد الثاني : ما بك يا كافور ؟ !

قال : أَمَا كُنَّا هُنَا وقت العشاء ، وتركنا البابَ مفتوحًا ؟

قال الآخر : نعم ؛ لقد تركناه مفتوحًا فتحةً صغيرةً تساعِدُنَا على الدُخول منها ، والاختفاء وراء السورِ ، وها هو ذا الآن مغلق ، فيا عَجَبًا ! كلَّ العجب ! ما كنت أظنُّ أن هذا المكان يطْرُقُهُ طارق ؟ !

فقال الثالث ، حاملُ المصباح والفأس : ما أَقْلَ عَقْلُكُمَا ! أَمَا تَعْرِفَان أن بعضَ الرعاة يخرجون من بغداد ، ويرعونَ أغنامَهم في مكان قريب من هذه الصحراء ، فإذا أَمْسَى المساء عليهم ، وسَرَقَهُمُ الوقتُ ، ولم يَسْتَطِيعُوا العودةَ إلى دُورِهِم — يَدْخُلُونَ هُنَا ، ويُغْلِقُونَ البابَ خوفًا من السود أمثالنا أن يأخذوهم ، وَيَشْوُوا لحومَهم ، وَيَأْكُلُوها ؟ !

فقالا له : لا أَحَدٌ أَقْلَ مِنْكَ عَقْلًا يا أَخانا !

فقال : إِنَّمَا لَا تُصَدِّقَانِي إِلَّا حِينَما ندخلُ المقبرةَ ، ونجد فيها أَحَدًا — وما أَظُنُّ إِلَّا أَنَّ الذي فيها قد رَأَى الضوءَ ورآنا ، فهرب فوق النخلةِ خوفًا مِنَّا ! !

فلما سمع غانم قول العبد الثالث ، تتم في نفسه ساخطاً مُتَحَسِّراً :
يا ألعن العبيد ؛ لا سترك الله ، ولا أبقاك ، ولا حفظ عليك عقلك
ومعرفتكَ ! ! ما الذى سيخلصنى الآن من هؤلاء السود المناجيس
المناكيد ؟ !

ثم سمع العبدان اللذان يحملان الصندوق يقولان ، وهما يضحكان :
ليس عليك يا بجيت إلا أن تتسلق الحائط ، وتتدلى من الناحية الأخرى ،
وتفتح لنا الباب فقد تعبنا من حمل الصندوق لأنه ثقيلٌ ، ولك علينا أن
نمسك لك واحداً من الذين سنجدهم فى الداخل ، ونشويه شيئاً جيّداً ،
بحيث لا يضيع من ذهنه وشحمه شيء بين الجمر ، ثم تقدمه لك لتلتهمه .
فظهر التردد على بجيت وقال :

خيرٌ لنا أننا نقذف بالصندوق من فوق الحائط ، فقد تذكرت أنه
ربّما يكون وراء السور لصوصٌ من قطاع الطريق الذين يقتلون
الناس ، ويسرقون أشياءهم ثم يأتون إلى مثل هذه الأماكن يقتسمونها
فيما بينهم .

فقالا له : يا قليل العقل ؛ أما تكف عن بلاهتك وثرثرتك ،
وتشدّوك بالكلام الذى لا يفيد حتى إذا ما دعا دعى العمل أجمت
وركبت الخوف ؟ !

ثم إنهما وضعا الصندوق على الأرض ، وتسورا الحائط ، وفتحا الباب ،
وأدخلا الصندوق ووضعاه بجانب القبر ، وبجيت يُنيرُ لهما بالمصباح .

فقال أحدهما :

يا أخوىَّ إننى قد تعبتُ من حمل الصندوق ، فلنستريح قليلاً ، فإذا أخذنا قِسطاً من الراحة نقومُ بدفنِ الصندوق فى القبر .

فقال الثانى : نعمَ الرأى ، ولتَقصُ فى هذه الفترةِ كلُّ واحدٍ منا السببَ فى كَيْه ، وتشويه وجهه بتلك العلامات المميزة له .

فقال بجيت : سأقص أنا أولاً عليكم قصتى .

قالا : قصّ فنحنُ آذانُ مُصغيةٌ .

فقال :

اعلموا يا أخوىَّ أننى حينما كنتُ صغيراً ، لم تتجاوز سِنى ثمانى سنين ، كنتُ أكذب على الجلابة كلَّ سنة كذبة تكونُ سبباً فى أن يقعَ بعضهم فى بعض ، وتدور بينهم مشاجراتٌ عنيفةٌ ، فلما عُرِف ذلك عني رأى سيّدى الجلاب أن يتخلص منى ، حتى يكفيه الله شرّى ، ويحفظه هو وأصحابه من كذِبى ، فأخذنى وذهبَ بى إلى الدَّلالِ ، وقال له : خذ هذا العبدَ ، وبعه على عبيه .

فقال له : وما عبيّه ؟

قال : يكذبُ كلَّ سنة كذبةً واحدة .

فصار الدَّلال ينادى : من يشتري هذا العبد على عبيّه ؟

فنظَرَ إليه الناس فى دهشة وعَجَب ، ونفروا منه ومنى مُنفوراً شديداً لأنهم لا حاجةَ بهم إلى شراءِ عبدٍ معيب ، لأن العبيد غيرَ المعيين كثير ؛



ولكن رجلاً تاجراً تقدم إلى الجلاب ، واستعدَّ لِشِرَائِي عَلَى عَيْبِي
ودفع فيَّ ستمائة درهم ، وأخذني إلى منزله ، بعد أن عَرَفَ من الدَّلَالِ
أنِّي أَكْذِبُ في كُلِّ سَنَةٍ كَذِبَةً ، وظَلِمْتُ في خِدمةِ التاجر الزَّمنَ
الباقى من تلك السَّنة ، وكانت كَذِبَتها قد وَقَعَتْ مِنِّي وَأَنَا في
خِدمةِ الجلاب .

ثم هَلَّتِ السَّنةُ الجَدِيدَةُ ، وكانت سَنَةً مَبَارَكَةً مَخْصِيَةً بِالنَّبَاتِ ،
فَكَسَبَ الزُّرَّاعُ ، وَزَادَ رِبْحُ التُّجَّارِ . فَإِنَّهُمْ بَعْدَ أَنْ جَرَدُوا تِجَارَتَهُمْ ،
عَرَفُوا مَقْدَارَ رِبْحِهِمْ ، وَصَارُوا يُنْهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَقِيمُونَ لِذَلِكَ
الْمَأْدَبَ وَالْحَفْلَاتِ إِلَى أَنْ جَاءَتِ النُّوبَةُ عَلَى سَيِّدِي فِي دَعْوَتِهِمْ ، وَإِقَامَةِ
وَلِيمةٍ لَهُمْ .

فَدَعَاهُمْ إِلَى بَسْتَانٍ بِخَارِجِ الْمَدِينَةِ كَانَ عَلَيْهِمْ ، وَحَمَلْنَا إِلَى هُنَاكَ جَمِيعَ
مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْوَلِيمةُ مِنْ أَطْيَابِ الْأَطْعَمَةِ ، وَلَذِيذِ الْفَوَاكِهَ ، وَغَيْرِهَا .
فَلَمَّا جَاءَ الْمِيْعَادُ وَفَدَ تِجَارُ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا يَأْكُلُونَ ،
وَيَشْرَبُونَ ، وَيَتَسَامَرُونَ ، وَيَتَنَادَرُونَ ، وَقَتًا طَوِيلًا . ثُمَّ أَرَادَ سَيِّدِي
أَنْ أَحْضِرَ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْبَيْتِ كَانَ قَدْ نَسِيَهِ ، فَنَادَانِي وَكَلَّفَنِي بِإِحْضَارِهِ
عَلَى سَجَلٍ ، فَاثْنَلْتُ أَمْرَهُ ، وَرَكِبْتُ بَغْلَةً ، وَتَوَجَّهْتُ إِلَى الدَّارِ ، فَلَمَّا
قَرَبْتُ مِنْهَا صَرَخْتُ ، وَوَلَّوْتُ ، وَأَسْبَلْتُ دُمُوعِي ؛ فَاجْتَمَعَ عَلَى
النَّاسِ كِبَارَاءُ وَصَغَارَاءُ ، وَدَارُوا حَوْلِي يَسْتَفْهَمُونَ عَنْ سَبَبِ صُرَاخِي ،
وَيَسْتَفْسِرُونَ عَنْ حَالِي ؛ وَكُنْتُ كُلَّمَا أَلَحُّوا فِي الاسْتِفْهَامِ

والاستفسار ، ازددتُ أنا صُراخاً وعويلًا ، وأصبح : واسيِّداه ! !
واسيِّداه ! !

وسمعتُ زوجةُ سيِّدى وبناتها صُراخى وبكائى على الباب ، ففتَحْنَ
فزعَاتٍ يسألننى الخبرَ ، فقلتُ لهن :

إنَّ سيِّدى كان جالساً تحت حائطٍ قديم هو وأصحابه ، فوقع عليهم ،
فلما رأيتُ ما جرى لهم ركبتُ البغلةَ ، وجئتُ مسرعاً لأخبرَكن .

فلما سمعتُ زوجته وبناته منى ذلك صرَّخْنَ ، وشقَّقْنَ ثيابهن ،
وطَمَنَّ وجوههن ؛ وأتتُ إليهن نساء الجيران يُواسينهن ، ويُشاركنهن
فى البكاء .

أما سيِّدتى فقد أخذتُ تصرُخ ، وتقلبُ متاع البيت بعضه فوق
بعض وتلف زينته ، وتكسر رُفوفه وتُحطِّم أثاثه ، وتُلطِّخ حِيطَانَه
بالسَّواد ، وتهيبُ بى صائحة :

وَيْلَكَ يَا بَنِيَّتِ يَا مَشْتُومَ ، يَا أَشَامَ مِنَ الْغِرْبَانِ وَالْبُومِ ؛ تَعَالِ
سَاعِدْنِي ، وَخَرِّبْ مَعِيَ الْبَيْتَ . فلنْ يَعمُرَ بعدَ سيِّدِكَ ؛ إِذْ مَا قِيَمَةُ الْحَيَاةِ

الدنيا من بعده ١٩

فلما سمعتُ ذلك منها ، عاَوِثْتُهَا على تَخْرِيبِ بَيْتِهَا ، وَإِلْبَاسِهِ ثُوبَ
الْحَدَادِ ؛ فَصَرْتُ أَفْتَحُ الْأَصُونَةَ ، وَأُخْرِجُ الرُّفُوفَ بِكُلِّ مَا عَلَيْهَا مِنَ
الْأَوَانِي وَالصَّيْنِي وَغَيْرِهِ وَأَكْسِرُهُ . حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْبَيْتِ ، فَلَمْ
أَتْرِكْ فِيهِ شَيْئاً سَلِماً ؛ فَعَمِلْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَأَنَا لَا أَكْفُ عَنْ الصِّيَاحِ :

واسيِّداه ١١ واسيِّداه ١١

ثم قالت لى سيِّدَتى وهى تبكى : تعال يا بحيت ، فسر أماننا ، وأرنا المكان الذى فيه سيدك تحت الأنقاض حتى نخرجه ، ونأتى به إلى هنا ، ونُشيع جنازته بما يليق بمقامه ، وبمركزه الاجتماعى والمالى بين سُكَّان المدينة ؛ حتى لا يظنَّ الناس أننا قصَّرتنا فى الواجب علينا نحوه .

فخرجن مُتَشِحاتٍ بالسواد ومعهن أقاربهن ، وبعض جاراتهن .

فسرتُ أمانهن وأنا أصرخُ : واسيِّداه ١١ واسيِّداه ١١ .

وكنَّ يسرن خلفى مكشوفات الوجوه حاسرات الرؤوس ، حافيات الأقدام ، جَزَعات القلوب ، باكيات ، نائحات ، صائحات : آه ١١ آه ١١ أواه ١١ أواه ١١ يا عمود البيت ، يا حصن الأهل ، يا عطوفاً على القريب ، يا حنوناً على الغريب ، يا كافلاً لليتيم ، يا معطى المسكين ، يا ...

فلم يبقَ أحدٌ من أهل البلد من الرجال والنساء والأطفال إلا وقد خرج وراءهن . وهم جميعاً فى عويلٍ وبكاءٍ وحسرةٍ وحُزنٍ ؛ وأخذوا يتذكرون ما كان عليه الرَّجُل من كريم الخلق ، ولطيف العشرة ، وما كان يقوم به من صلاةٍ وصيامٍ ، وما كان يعملُه من خيرٍ ويقدمُه من صدقات ، ثم يقولون :

لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال بعضهم : إننا سنذهب إلى الوالى ونُخبره بذلك الخبر .

وقال بعض آخر : ونحن سنأتي معكم .
وسرنا جميعاً . وأنا لا أكف عن الصياح ، وهم خائفون يصيحون ،
حتى قاربنا البستان الذي فيه سيدي وأصحابه . فجريت أسبقهم ، ودخلت
البستان على سيدي ، وأنا أحشو التراب على رأسي ، وألطم وجهي
وأصيح :

واسيدتاه !! أواه !! أواه !! ما بقي لي من يعطف عليّ بمد سيدي ،
يا ليتني فداك يا سيدي !!

فلما رآني سيدي بهت ودعر ، واصفرّ لونه ، وقال بصوت
متهدج :

مالك يا بجيت ؟ وما خبرك ؟ !
فقلت : يا سيدي إنها مصيبة دهماء ، وداهية دهماء ، قد حلت بنا ،
فإنك لما أرسلتني إلى البيت لقضاء طلبك . ذهبت فوجدت حائط المنزل
قد انهدم ، وانطبق المنزل على من فيه .

فصاح سيدي مُرتاعاً : أو لم تسلم سيدتك يا بجيت ؟ !
فقلت وأنا أبكي : لا يا سيدي ، إنها أول من مات تحت
الأنقاض ...

فقال وقد زاد ارتياعاً : وهل مات أحد آخر ؟ !

قلت : نعم . الأولاد جميعاً ماتوا .

قال : وابنتي الكبيرة ؟ !

قلت : ماتت .

قال : وابنى الصغير ١٩

قلت : مات .

فقال وقد ارتجَّتْ أعصابه ، وأصابته نوبةٌ شديدةٌ من قوَّةِ

الصدمة :

وهل أحضرت لى بغلتى لأركب عليها ، وأعودُ بها سريعاً إلى

المدينة ؟ ١٩

فقلت آسفاً : والبغلة ما سَامت لاهى ولا غيرها ، حتى الغنم والوز
والدجاج أطبق عليها حائط المنزل فصارت أكواماً من اللحم ، وطعاماً
للكلاب والقِطط .

فلما قلت ذلك لسيدى لم يستطع أن يملك أعصابه ، ولم يقدر على ضبط
نفسه ، ففار دمه ، وغلا صدره ، وسيطر عليه حزنٌ عميق ، وهمٌّ لم
يقدر على احتماله ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، ودارت به الأرض الفضاء ،
وخرج عن هُدُوئه واتزانه ، فألقى بعمامته من فوق رأسه ، وقطع أثوابه ،
وتنف لحيته . وصار يضربُ على رأسه ، ويلطمُ وجهه ، ويضرب رأسه
فى الحائط ، حتى أسالَ دمه ، وأخذ يصيحُ :

آه !! وأولاداه !! وأزواجته !! آه !! وأمُصبيته !! مَن جَرى له

مثل ما جَرى لى ؟ ! ومن حدث له مثل ما حدث لى ؟ !

ورثى التجار لحاله ؛ فأسرعوا إليه ، والتفوا حوله ، وأخذوا يخففون

عنه وقع الخبر عليه ، ويربتون كتيفه ، ويذكرونه بآيات من الكتب السماوية تدعو إلى الصبر ، والتسليم لله ، والرضا بقضائه ، فالعوض منه وعليه .

واندفع سيدي خارجاً من البستان كالخجول ، شارد الذهن ، مُشَتَّت الفكر ، لا يدرى إلى أين يتجه ، وأصحابه يسرعون من ورائه ، وإذا بغيره وصياح ، وناس كثيرين يكون ، ويعولون ، ويلبسون الحداد ، فنظر سيدي إليهم فإذا هم أهله وزوجته وأولاده ، يتبعهم جمعٌ غفيرٌ من أهل المدينة .

ووقع نظراً سيدي على زوجته وأولاده وهم في حالةٍ يُرثى لها ، فوجوههم مُعبرة كاللحة ، وعيونهم باكية ، وملابسهم ممزقة .

فأخذ ينظرُ إليهم في دهشةٍ وعجبٍ وشكٍّ ، وهو فاغرٌ فاه ، محقق عينيه ، وأخذ يردد النظر ، ويوزعه بينهم ، وبين من حوله ، ويهزُّ رأسه ، ويصفقُ يديه ، ويلتفتُ يميناً وشمالاً .

ووقعت أنظارُ سيدي وأولادها على سيدي وهو واقفٌ مذهولٌ في مقدمة أصحابه ، فبهتوا هم أيضاً وتولاهم الدهول ، وصدمتهم الحيرة ، وطال بالفريقين الوقوفُ ، وكأنما قد تسمرت أقدامهم بالأرض وعيونهم تحماقُ في وجوه بعضهم بعضاً .

ثم لم تلبث سيدي أن اندفعت هي وأولادها إلى سيدي ، فتعلقوا جميعاً به يقبلونه ، ويتعلقون به ، ويمانتقونه ، بعد أن أيقنوا أنه هو

حقاً رجُلهم وأبوهم وعائلهم ، لا تخدمهم منه أنظارهم ، وأنه لا يزالُ حياً يُرزق .

وأيقن هو أنهم حقاً زوجته وأولاده سالمين لم ينلهم أذى ، فبادلهم العِناق والقبلات وهم يتصايحون في نفسٍ واحد :
الزوجة : الحمد لله على سلامتك ، فقد أَرانا الله وجهك بخير . . .
ونجارك أنت وأصحابك .

الأولاد : شكراً لله يا أبتاه فقد أنقذك من سُقوط الحائط .

الرجل : كيف حالكم أتم ؟ وما الذى حصل لكم ؟! حمداً وشكراً على نجاتكم من سقوط الحائط عليكم .

وأقبل الناسُ القادمون من بغداد على سيدي ، وعلى التجار الذين معه يهنئونهم بنجاتهم ، وكذلك تقدم التجار الذين كانوا مع سيدي يهنئون القادمين من بغداد بنجاتهم ، وكثر بينهم الكلام والاستفهام من غير أن يفهم أحد منهم شيئاً ، أو يقف على سبب .

وبينما هم في أخذٍ ورَدٍّ إذ بالوالى قد أقبل على البستان هو ورجاله ، ومعه العمال بالفتوس ، والمساحى ، لرفع الأنقاض ، وإخراج القتلى من تحت الحائط .

فلما أشرف على الجمع قال :

أين الحائط الذى سقط على جماعة التجار ، حتى يسرع العمال برفع أنقاضه وإخراج الجثث من تحتها ؟

فقال الناس : إن التجّار جميعاً سّالمون ، لم يُصِبهُم أذى ، وهم بخير وعافية .

فقال الوالى : ما الذى نجّاكم من تحت أنقاض الجدار ؟
فقال سيّدى : إنّنا كُنّا فى البستان ، ولم يسقط علينا الجدارُ ، إنّما الحائط الذى سَقَطَ كان فى منزلى ، والله سبحانه وتعالى قد نجّى أهلى من شرّه فنَجّاهم جميعاً .

فقات زوجته : إنّما الحائط كان فى البستان ، فقد أتانى العبدُ بخيت ، وقال : إن الحائط وقع على سيّدى وأصحابه وماتوا جميعاً .

فقال سيّدى فى دهشة : إنه قد أتانى الآن ، وهو يصيح :
واسيّدَتاه !! وأولاد سيّدَتاه !!

وقال : إن سيّدَتى وأولادها قد ماتوا جميعاً .
وتلفّت القومُ يبحثون عنيّ ، وقد احمرّت أعينهم ، وكادَ يتطايرُ منها الشرر من شدة الغيظ .

وكنْتُ جالساً على الأرضِ بالقرب منهم ، وعمامتى مخروقة فوق رأسى ، وأحْثُوا الترابَ عليها .

فصاح سيّدى صيحةً عاليةً منادياً : يا بخيت .
فأقبلتُ عليه ، فقال لى ، وهو يكاد يتميّز من الغيظ !
ويلك يا عبدَ النّحس !! ما هذه الأفعال التى فعلتها ؟
فلم أُرَدّ عليه ، وخرجت بالصمت عن لا ونعم .

فقال : يا أنحس العبيد !! لَأَسْلُخَنَّ جِلْدَكَ ، ولَأَقْطَعَنَّ لَحْمَكَ إِرْبًا
إِرْبًا ، ولَأَكْسِرَنَّ عَظْمَكَ .
فلما قال ذلك قلتُ له :

إنكَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ مَعِيَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، لأنَّكَ اشْتَرَيْتَنِي
عَلَى عَيْبِي ، وَعَيْبِي أَنْتَ تَعْرِفُهُ ، وَهُوَ أَنِّي أَكْذِبُ كُلَّ سَنَةٍ كَذِبَةً ،
وَهُنَاكَ شُهُودٌ يَشْهَدُونَ عَلَيَّ ذَلِكَ .
فقال :

يا مَاعُونُ ؛ أَتُسَمِّي كُلَّ مَا فَعَلْتَهُ كَذِبَةً ؟
فقلتُ : بل هِيَ نِصْفُ كَذِبَةٍ ، وَإِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي نِهَايَةِ السَّنَةِ أَكْذِبُ
النِّصْفَ الْآخَرَ .

فَنَظَرَ إِلَيَّ سَيِّدِي وَهُوَ يَكَادُ يُخْرِجُ عَنْ طَوْرِهِ ، وَقَالَ لِي :
وَيْلَكَ !؟ مَاذَا تَقُولُ !؟ أَهَذِهِ نِصْفُ كَذِبَةٍ ؟ وَمَا الَّذِي كُنْتَ
تَفْعَلُ لَوْ كَانَتْ الْكَذِبَةُ كُلُّهَا ؟
أَغْرَبُ عَنْ وَجْهِ ، فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكَ ، اذْهَبْ عَنِّي فَقَدْ
أَعْتَقْتُكَ ! .

فقلتُ : يَا سَيِّدِي ، وَلَوْ أَنَّكَ قَدْ أَعْتَقْتَنِي فَأَنَا لَا أَسْتَطِيعُ تَرْكَكَ
إِلَّا إِذَا تَمَّتِ السَّنَةُ ، وَكَذِبْتُ نِصْفَ الْكَذِبَةِ الْآخَرَ ، وَلَكِنْ حِينَئِذٍ أَنْ
تَخْرُجَ بِي إِلَى السُّوقِ ، وَتَبِيعَنِي عَلَى عَيْبِي ، كَمَا اشْتَرَيْتَنِي عَلَى عَيْبِي ، لِأَنِّي
لَيْسَ لِي حِرْفَةٌ أَقْتَاتُ مِنْهَا .

— وكان الوالى واقفاً يشاهدُ هذا الموقفَ ، ويسمعُ ذلكَ الحوارَ
بينى وبين سيّدى ، قهرنى ولعننى ، وأنا واقفٌ أبتسمُ ، لا أبالى
أحدًا ، وأقول :

لقد اشتريتنى يا سيّدى على عيى .

وانتهى النقاشُ بينى وبينه على هذا وانقضى الجمع .

وتوجّه سيّدى وأهله إلى منزله ، وسار الناسُ ولا حديثَ لهم إلّا
التعجبُ والسخطُ علىّ وعلى فعلتى .

فلما وصل سيّدى إلى منزله وراهُ خرابًا . وكنتُ أنا الذى خرّبتُ
معظمه ، عرف أنه حقًا قد أصابَ البيتَ سوءً ، وأن جزءًا من كذبتى
كان صحيحًا ، فنظر إلى زوجته مذهوشًا متسائلًا :

فقالت :

إن العبد هو الذى أتلفَ أكثرَ ما فى الدار ، وكسّرَ جميعَ الأوانى
من البلّور والصينى .

— فازداد سخط سيّدى وغضبه وأخذ يضرب يديّ بيدٍ ، ويقول :

إننى ما رأيتُ إنسانًا ، ولا سمعتُ أن شيطانًا يمكنه أن يفعلَ فعلَ
هذا المنكود المشئوم ، ثم يقول بعد ذلك إنها نصف كذبة ، فما باله لو
أنه كذب كذبتَه كاملةً ، إنه كان خرّبَ مدينة أو مدينتين ، إننى
لا أستطيع السكوتَ على هذا العبد ، وسأذهب أشكو ما فعلَ
إلى الوالى .

— وذهب سيدي ، وهو يكادُ يتميَّزُ من الغيظ إلى الوالى وبسط
له شكايته .

فاستدعانى الوالى إليه ، وهناك أوسمى سيدي وأعوان الوالى ضرباً
ولكماً ، وأنا أستجير فلا أجار ، حتى غبتُ عن صوابى ، فكوؤونى
بالحديد المحمى فى وجهى ، وباعنى سيدي على عيبي .

فما زلتُ أكذبُ ، وأثير الفتن بين الناس أينما حللتُ وأخلقُ
المشكلات بين سيدي الذى يشترينى وبين الناس ، وبقيتُ أنتقلُ من
مكانٍ إلى مكان ، ومن مشترٍ إلى آخر ، ومن كبيرٍ إلى أمير ، حتى استقرَّ
بى المطافُ فى قصرٍ أمير المؤمنين . . .

وهذه هى قصتى . . .

فضحك العبدان الآخران ، حتى استلقى كلُّ منهما على قفاه ، وقالا
لبخيت :

ويلك !! إنك تكذبُ كذباً شنيعاً ، وتسببُ للناس آلاماً
شديدة ! .

فضحك بخيت من قولهما مسروراً وقال :

فليقص علينا كلُّ منكما قصته .

فقالا :

يا ابن العم ، إن قصة كلِّ منَّا أيضاً طويلة ، تطولُ كلُّ منهما
قصته ، وقد قرُبَ طلوع الفجر ، فلنؤجلْ ذلك إلى وقتٍ آخر ،

ولنقم الآن بمهمتنا التي جئنا من أجلها خوفاً من أن يطلع على أمرنا أحد .
 — وما لبثوا أن نهضوا ، وأخذوا يحفرون في الأرض بالفأس .
 ويتناوبون الحفر ، وتقل الأتربة ، حتى حفروا حفرة تشبه القبر ، وتعاونوا
 على حمل الصندوق فيما بينهم ، ووضعوه فيها ، ثم أهالوا عليه التراب ،
 وسووه فوقه ، وانصرفوا من حيث أتوا ، بعد أن أغلقوا الباب .

(٢)

وتنفس غانم الصمءاء عند ما تيقن من انصرافهم ، ولكن القلق
 ساوره ، وشغل باله بسر هذا الصندوق الذي دفنوه ، وصمم على كشف
 أمره ، ومعرفة ما فيه :

فزل عن النخلة التي كان يعتليها ، وكان نور الفجر قد ابتدأ يشق
 بخيوطه البيضاء سواد الليل ، طارداً أمامه جحافل الظلام ؛ واتجه إلى
 مكان الحفرة التي دفن فيها الصندوق ، وما زال يزيح عنه الأتربة بيديه
 حتى كشفه ؛ ثم ما زال يحتال على إخراجه من الحفرة حتى أخرجه ،
 فوجده صندوقاً من خشبٍ وله غطاء محكم ، عليه قفل مغلق .

فنجير غانم في أمر هذا الصندوق ، وفيما يحتويه ، ورجح أن به مالاً ،
 أو متاعاً سرقة هؤلاء العبيد ، وأخفوه هنا ؛ فعول على فتحه ، وتناول
 حجراً كبيراً من الأرض وأخذ يثق به قفل الصندوق حتى حطمه ،

وفتح غطاء الصندوق ، وما كان أشدَّ دهشته عند ما وجد أن في الصندوق فتاة مليحة بارعة الحسن والجمال فاتنةً باهتة اللون ممدودةً به ، وعليها ملابس حريرية نفيسة فاخرة ، ومتحلية بحلى من ذهب وجواهر ؛ ففي معصمها الأساورُ ، وفي أذنيها قرطّ ثمين ، وفي عنقها القلائدُ ، وفي أصابعها الخواتمُ .

ولما رآها غانمٌ تغم في نفسه قائلاً :

سبحان الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله .

وأراد أن يرُدَّ الغطاء على هذه الصبية التي اعتقد أنها ميتة ، مستنبطاً ذلك من سكونها وشحوبها ، وإنحماض عينيها ، ولكن قلبه لم يطاوعه على قبر هذا الجمال ، ونفسه لم تهاوذهُ على دفن هذا الشباب . فأنحنى على الفتاة وهو مشفقٌ على نفسه أن تذوبَ ، وعلى قلبه أن يتصدّعَ .

ولكن ؛ يا للدهشة ، ويا للعجب ! ! أتخذعه عيناه ، هذه هي الحقيقة التي يراها ؟ أم هذا خيالٌ لا حقيقة له ؟ !

أيموت هذا الجمالُ ويدفنُ في التراب ؟ سبحانك يا ربى ! ما أجمل قدرتك وأعظم حكمتك ! وعلى أشعة الفجر الضئيلة رأى صدر الفتاة يعلو ويهبط ، وعلى نوره الباهت رأى دم الحياة يجري في وجهها رغم شحوبه . واعتملت بين جنبي غانمٍ عواملُ الدهشة والعجب ، والاستبشار والأمل .

الدهشة ، والمجبُّ لدفن هذه الصبية الفاتنة حية لم تمت ، والاستبشارُ

والأملُ لإمكان إتقاذها ، والعمل على نجاتها .

ونفذ الهواء الباردُ الخالصُ إلى صدر الفتاة فسمع غانمٌ صوتًا لتنفسها ، وصعوبةً في ترديده ، حتى لكانها في حشرجةٍ ، فأيقن أنها مَغشىٌ عليها ، وليست بنائمة نومًا طبيعيًا ، فرفعها من الصندوق ، وأسندها إلى الحائط ، وجعلها في وضعٍ يساعدها على سُهولة استنشاقِ الهواء ، ودخوله كاملاً إلى رئتيها .

وما كاد يعمل لها بعض الإسعافاتِ حتى شهقت الفتاة ، ثم شرقت وسَعَلَتْ ، فوثب من فمها شيءٌ مستديرٌ ؛ تأمله غانم ، فعرف أنه قرصٌ بنج من بنج إقريطش الذي يكفي لنوم عشرة رجالٍ .

وابتدأت الحياةُ تدب في الفتاة ، فتحركت ، وتلملت ، وفتحت عينيها ، وأدارت طرفها في المكان ؛ ثم أغمضتهما ، وقد شعرت بلفح الهواء لوجهها . وقالت بصوت رخيم شبه هاذية وهي لا تزالُ تحت تأثير البنج ، وتعالى حريقَ عطشه :

آه : ما أحلاك يا ريحُ ! وما أطيبك يا هواء ! ولكن ويلك !
فما فيك ريٍّ للعطشان ، ولا أنسٍ للريان .

وسكتت قليلاً ، ثم استطردت تقول ؟

أين الزهر ؟ ! أين البُستانُ ؟ !

فلما لم تسمع جواباً ، فتحت عينيها ؛ وأجالت طرفها ثانياً فيما حولها ، وهي تنادى بصوت خافتٍ متهدجٍ :

يا صبيحة ، يا شجرة الدر ، يا نور الهدى ، يا نجمة الصبح :
فعلم غانم أنها تنادى صاحباتها وجواريهما ؛ فظل ساكتاً حتى يزول
التأثير الذى بها .

فلما سمعها تتسائل ، وقد أخذتها الدهشة :
من جاء بى إلى هنا ؟ من أخرجنى من بين الستور والحدور ووضعنى
بين القبور ؟ !

من الذى نقلنى من بين الأشجار والأزهار ، والفواكه والشمار ، إلى
تلك الصحارى والقفار ؟ ! قال :

يا سيدتى : أنا غانم بن أيوب ، ولا علم لى بشيء إلا أنى وجدتكَ
مغشىاً عليك هنا فى هذا الصندوق من أثر بنج عنيف ثقيل ؛ وعملت على
إسمافك ونجاتك

فنظرت الفتاة إلى غانم ، وإلى الصندوق ، وإلى المكان الذى هما فيه ،
وابتدأت تستعيد من ذاكرتها مامرّ بها ، فأخذت تتكشف لها الحقيقة ،
وينبثق أمامها نور المعرفة ؛ فتنفست تنفس الارتياح واستشهدت :
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

ثم أدارت وجهها إلى غانم وقالت :
لقد أفقت الآن ، وثاب إلى رشدى ، وعادنى صوابى ؛ فقص علىَّ
أيها الشاب الطيب حقيقة الأمر .
فقصَّ عليها الشاب قصته وقصتها .

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ نَجَاتِي عَلَى يَدِ شَابٍ صَادِقٍ مَهَذَّبٍ
عَفِيفٍ مِثْلِكَ . وَالْآنَ ضَعْنِي فِي هَذَا الصَّنْدُوقِ كَمَا كُنْتُ ، وَاخْرِجْ إِلَى
الطَّرِيقِ ، فَقَدْ ابْتَدَأَ يَعْمُرُ بِالسَّابِلَةِ ، فَكَثُرَ مَكَارِيئًا أَوْ بَغَالًا لِحُلِّ
الصَّنْدُوقِ ، وَازْهَبْ بِي إِلَى مَنْزِلِكَ ، وَلَنْ يَحْصُلَ لَكَ مِنِّي إِلَّا كُلُّ خَيْرٍ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَفَرَحَ غَانِمٌ بِرَأْيِهَا ، وَأَعَادَهَا إِلَى الصَّنْدُوقِ ، وَخَرَجَ إِلَى الطَّرِيقِ ،
فَاكْتَرَى رَجُلًا يَبْغُلُ ، وَأَتَى بِهِ إِلَى الْمَقْبَرَةِ ، وَحَمَلَهُ الصَّنْدُوقُ بَعْدَ فِيهِ ،
وَسَارُوا جَمِيعًا حَتَّى دَخَلُوا الْمَدِينَةَ ، وَتَوَجَّهُوا إِلَى مَنْزِلِ غَانِمٍ .
وَلَمَّا فَتَحَ غَانِمٌ الصَّنْدُوقَ بَعْدَ ذَهَابِ الْحَمَّالِ ، وَأَخْرَجَ الصَّبِيَّةَ مِنْهُ
— نَظَرَتْ هَذِهِ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَإِلَى أَرْجَائِهِ وَأَبْهَائِهِ ، وَإِلَى مَا حَوَى مِنْ
مَفْرُوشَاتٍ وَأَحْمَالٍ — فَعَرَفَتْ أَنَّ غَانِمًا مِنَ التَّجَارِ الْأَغْنِيَاءِ .
فَقَالَتْ شُكْرًا لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ قَالَتْ لَغَانِمٍ : اذْهَبْ إِلَى السُّوقِ وَاتَّئِنَّا بِشَيْءٍ نَأْكُلُهُ .
فَخَرَجَ غَانِمٌ فَرِحًا نَشِيطًا ، لَا تَكَادُ الدُّنْيَا تَسْمَعُهُ لِفَرَطِ ابْتِهَاجِهِ ، وَشِدَّةِ
سُرُورِهِ ، يُبَلِّغِي طَلِبَ هَذِهِ الْفَتَاةِ الْجَذَابَةِ الْفَاتِنَةِ الَّتِي سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَوَقَعَتْ
مِنْ قَلْبِهِ مَوْقَعًا حَسَنًا ، وَتَعَلَّقَ بِهَا مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ .

فَابْتَاعَ لَحْمًا مَشْوِيًّا ، وَخَلَوَى ، وَفَاكَمَهُ ، وَتَقَلَّأَ ، وَشَمَمَا ، وَأَزْهَارَا ،
وَعَادَ إِلَى الْمَنْزِلِ ؛ فَقَامَتِ الْفَتَاةُ ، وَتَحَامَلَتْ عَلَى نَفْسِهَا ، وَأَعَدَّتْ الْمَائِدَةَ ،
وَهَيَّأَتْهَا ؛ ثُمَّ جَلَسَا إِلَيْهَا يَأْكُلَانِ ، وَيَتَحَادَّثَانِ ، كُلُّهُمَا يَقْصُ عَلَى الْآخَرِ

أطرف ما يعرف من الحديث ، وبعد أن انقضى النهار ، وأقبل الليل ،
أعد غانمٌ حجرتي نومٍ ، لكلٍّ منهما حجرةً ؛ ثم أوى كلُّ منهما إلى
فِراشه ، ونام نوماً هادئاً عميقاً .

ولما أصبح الصباحُ خرج غانمٌ ، فاشترى لحماً وخضراً ؛ فطهت
الفتاةُ لهما طعاماً على طريقةٍ لذيذةٍ شبيهةٍ ، وأكلامعاً ؛ وغانمٌ مغموراً
بسعادةٍ لا حَدَّ لها لقربه من هذه الفتاةِ المليحةِ التي أسرت لُبَّهُ ،
وملكت حواسَّهُ ، وسيطرت على قلبه .

ومرت بضعة أيام ، وهما على هذه الحال ، ازداد فيهما حبُّ الفتاةِ
تَمَكُّناً من قلب غانمٍ ، وتضاعف إعجابهُ بأدبها معه ، ولطفها في معاملته ؛
فصمَّم على طلب يديها ، واتخاذها زوجةً مخلصَةً له .

وفاتحها في هذا الأمر وهو لا يدور بخليده أنها ترفضُ طلبه .

ولشدَّ ما كانت دهشتهُ وارتباعه حينما قالت له آسفةً :

هذا غير ممكن يا غانم .

فقال وهو يغالب انفعاله ، ويخفي حَسْرته :

وما السبب ؟ !

قالت : الآن آن الأوان لأُقصَّ عليك قصتي ، وأُكشفُ لك

أمرى ...

اعلم أنني محظية أمير المؤمنين ، وجاريته التي يضعُها في الصفِّ الأول

من بين جواريه . قد ربيت في قصره منعمةً مُدَلَّلةً ، تخدمُني الجوارى ،

وَيُلبِّينَ إِنْ نَادَيْتَ ؛ وإشارتي أمرٌ ، وأمرى مطاع . ولما كبرت أعجب بي
الخليفة أيما إعجابٍ ، وأفرد لي المقاصير ، وأغدق عليَّ من حُبِّه وعطفه ،
ومن هداياه ، وألطفه ما تراه عليَّ من حلي وجواهر .

وكانت زوجةُ الخليفة تَغَارُ مِنِّي أشدَّ الغيرةِ ، وتنفسُ عليَّ حبَّ
الخليفة لي ، ورعايته لشأني ، واستجابته لرغباتي ؛ فكانت لا تكفُّ
عن السكيد لي خفيةً ، وقد دسَّتْ عليَّ إحدى جوارِها ، لتتجسسَ لها
على أسرارِي ، وتعرفها أولاً بأولِ أحوالي ، وكنتُ أنا أعلمُ بنواياها
نحوي ، وأتوجَّسُ خيفةً . مما تُدبِّرُهُ لي ؛ فأَتَوَقَّعُ أَنْ يصيبني شرُّها إذا
أصبحتُ ، وأَتَوَقَّعُ ذلكَ أيضاً إذا أمسيتُ ، وكنتُ أتحفَّظُ ما استطعتُ
حتى لا تنال مِنِّي منالاً .

فلما كان اليومُ الذي وجدتني فيه بالصندوق ، وكان الخليفة مسافراً .
فعند ما تهيأتُ للنوم شربتُ شراباً اعتدت أن أشربه قبل النوم كلَّ
ليلة ، وبعد أن شربته أويتُ إلى فراشي ونمتُ ، ولم أَسْتَيْقِظْ إلا على
يديك حينما أيقظتني ؛ وأفهمُ من هذا طبعاً أنني نمتُ وغبتُ عن صوابي بعد
تناولي إِيَّاه ؛ فدسَّتْ لي الجارية قرص البنج في خلقي حتى لا أفيق سريعاً
ريثما يتمون مؤامرتهم ، وينقلوني في الصندوق ، ويدفنوني في القبر .

وقد تم لزوجة الخليفة ما أرادت برشوة الخدم والعبيد بالمال ؛ ولولا
أن عناية الله قبضتْك لي وجعلتْك تلجأ إلى هذه المقبرة لتبيت فيها —
لكنت الآن في عدد الأموات .

ولا أعلم الآن ما كان من أمر الخليفة حينما عاد من سفره ، ولم يحدني في داره ، ولا أعرف إلا الاقتراءات الكاذبة التي سيفترونها عليّ ؛ ليخففوا عليه ما يلحقه من القلق بسبب غيابي ، ولا بد أن تكون هذه الاقتراءات من نوع يمس الشرف والكرامة والعفاف ، حتى ينفضوه في جاريته التي يحبها .

فلما سمع غانم حديث قوت القلوب ، وعرف أنها جارية الخليفة — أخذته الهيبة والخشية وتراجع إلى الورااء متقهقراً ، وهو يتم ويهمهم بكلمات الاعتذار والأسف .

ونهض فغادر المنزل ، وسار في الطرقات هائماً على وجهه يفكر في أمره ، ويستعرض حالته ومآله ، منقبض النفس ، منكسر الفؤاد ، وظل كذلك حتى انصرم ما بقي من النهار ؛ ففكر عائداً إلى الدار وقد حمل معه ما اعتاد حمله من طعام ، ودخل على قوت القلوب فوجدتها تبكي بحرارة ، ولكنها كفكت دموعها عند رؤيته ، وبشت في وجهه مظهره السرور والانشراح ، وتناولوا طعامهما ، وناما كل منهما في حجرته مببل الخاطر ، لا يستقر على حال من القلق .

(٣)

أما ما حدث في قصر الخليفة ، فهو أن زوجته بعد أن دبرت خطتها ، وأحكمتها مع من عاونها فعلت فعلتها بقوت القلوب ، ونفذت مكيدتها ؛ فأبعدتها عنها ، ولكنها تحيَّرت فيما تعمل به اختفاءها عندما يعود

الخليفة، ويسأل عنها. فدعت بقهر مائة عجوز عندها، وأطلعتها على سرّها، وطلبت مشورتها، وإرشادها؛ فقالت لها العجوز:

يا سيدتى لقد قرُب محبىّ الخليفة، فمرى خادماً من خدمك أن يذهب إلى نجار، ويطلب منه أن يصنع على جناح السرعة هيكلَ إنسان من الخشب، ومرى بحفر قبر فى وسط القصر وأقيمى له مقصورة توقد فيها الشموع والقناديل، وادفنى تمثال الخشب فيه بعد أن تكفينيه، واطلبى من كل من بالقصر من النساء لبس السواد علامة الحداد، فإذا ما جاء الخليفة انخرطنا جميعاً فى البكاء، وانشروا التبن فى ممرات القصر وطرقاته، فيسأل عن سبب هذا الحزن، فقولوا جميعاً: لقد ماتت قوت القلوب، وعظم الله أجره فيها، وأخبروه أنكم قتم بدفنها فى القصر لشدة إعزازكم لها، وفرط محبتكم إياها، لما كانت عليه من خلق عظيم، وطبع كريم، ولأنها كانت تعطف على الفقير؛ فتكسو العارى، وتطعم الجائع، وكانت تعين المحتاج، وتغيث الملهوف، وتفرج كرب المكروب أخبروه بهذا كله مضافاً إليه أن ما تعلمونه من حب الخليفة إياها، وإيثاره لها، وتقديمها على جميع جوارى القصر ونسائه - هو الذى جعلكم تتخذون لها فى فناء القصر مقبرة؟ لتبقى على الدهر قريبة من عيونكم وقلوبكم.

واعلموا أنكم إن فعلتم ذلك فإنه يصدق قولكم، ويحمل لكم
(٢)

جميلكم ، وإن ساوره شكٌّ في الأمر ، ووشى واش لديه بشيء ، وأراد التأكد من ذلك ، وفتح القبر ، لمعرفة الحقيقة ؛ فسيجد هيكلَ إنسان مدرجاً في الأكفان ، وإن لم يقتنع ، وأراد فتح الأكفان ، والاطلاع على ما فيها ، فتكأروا عليه بالقول مستنكرين فعلته ، وذكرُوه أن هتك حرمة الميت بعد دفنه من أكبر المحرمات .

حينئذ سيتهيب ، ويخشع ، ويرتد عن هذا الأمر ، وتخلصين أنت من هذه الورطة بمشيئة الله .

فاستصوبت زوجة الخليفة رأىَ العجوز ، وسرّت منه ، وقالت لها :

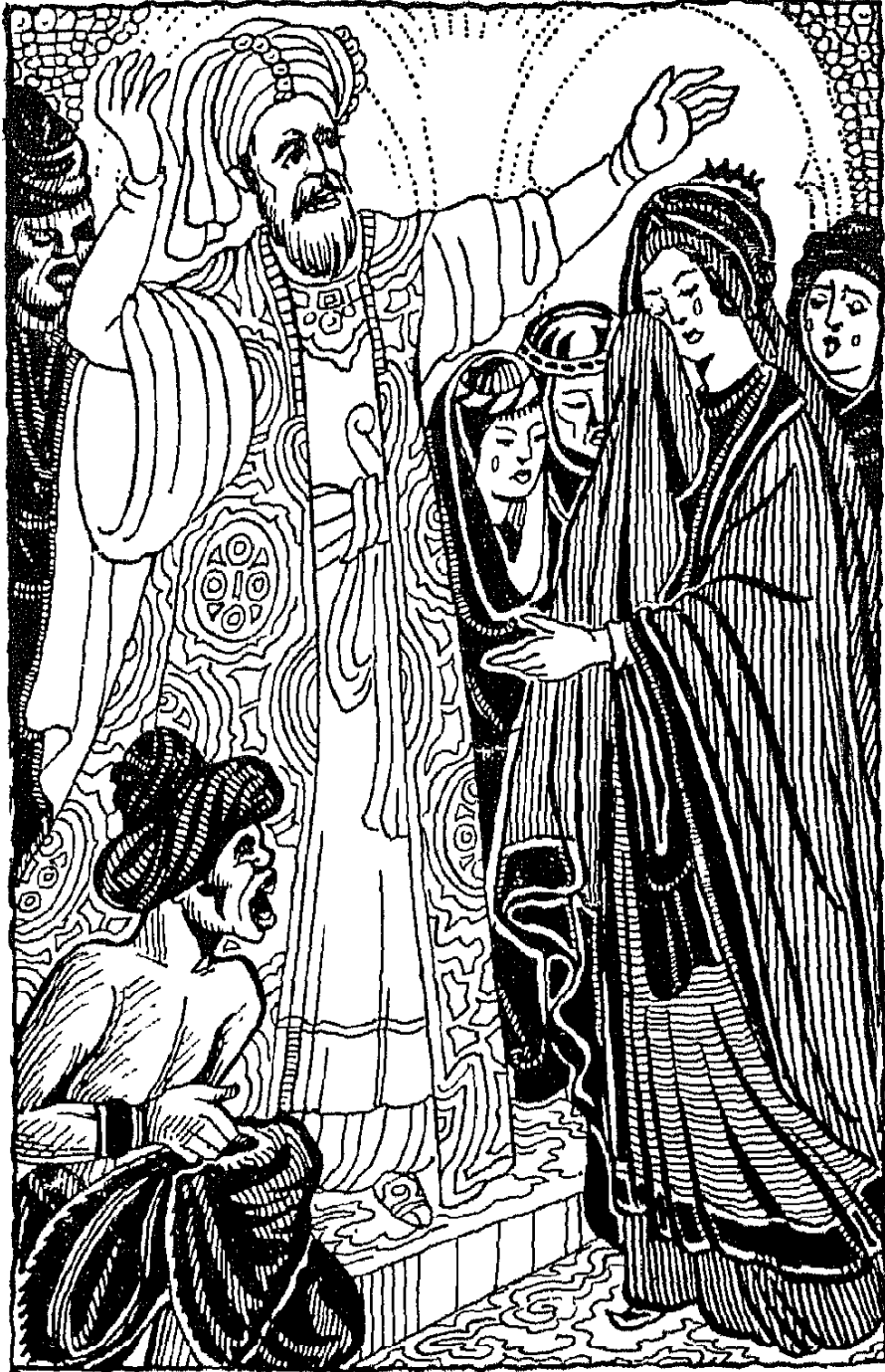
إني لا آمن أحداً على تنفيذ هذا الأمر غيرك ، نخذى من النقود ماشئت ، ودبّرى ما ترين ، على وجه السرعة .

ثم نقدت العجوز من المال ما يلزم لتنفيذ تدبيرها ، كما نقدتها عن فكرتها .

ولم تُضع العجوز وقتها سُدىً ؛ بل شرعت في الحال تعمل ، وكلفت النجار والبناء كلاً بمهمته ، هذا يبنى القبر ، وذلك يصنع النعش ؛ وابتاعت كل ما يلزم لتنفيذ مشروعها .

ولم تمض بضعة أيام حتى كان كل ما صورته ودبّرتَه ورتبته مُعدّاً على أكمل وجه .

فأقيم القبرُ في وسط القصر ، ودُفنت به دُمَيّة الخشب مدرجةً في



الأكفان ، وأوقدت فوقه الشموع والقناديل ، وفرشت حوله البُسَطَ
والسجاجيد ، والتفت حوله الجوارى يلبسن السواد ، ويبكين قوت القلوب
بالدمع الغزير ؛ وأشيع في القصر خبر وفاة قوت القلوب ، فتملك جميع
من به الحزن والوجوم .

وعاد الخليفة من سفره بعد الغياب ، وكان يهل على قصره فرحاً
بعودته ، مستوحشاً لأهله ، مُتلهفاً على أخبارهم ، مشتاقاً لرؤيتهم ، ينتظر
وجوهاً متلهلة ، ضاحكة لمراه ، هاشة باشة لاستقباله ، فإذا به يرى وجوهاً
عابسة كالحة ، وعيوناً متكسرة باكية ، يطلع عليه بها أهل القصر .
ويسأل : ما الخبر فيقولون : عظم الله أجرك في قوت القلوب .

فيرتاع أشدَّ ارتياح ، ويكاد يهوى ساقطاً على الأرض ، ثم ينظر إلى
مُخبريه غير مُصدِّق ، فيؤكِّدون له الخبر ، ويرشدونه إلى قبرها ،
ويقولون له : إن زوجته هي التي أمرت بدفنها في القصر إكراماً له ، فيتوجه
إلى زوجته ، ويشكرها على فعلها ، ويجلس بجوار القبر حزيناً مُلتاعاً ،
دامع العين ، كسير القلب ، ولكنه بدأ ينتابه الشك ، وتساوره
الوساوس ، ويُقلقه الارتياح ، ويحدث نفسه : يا ويلنا ، أهذه التي
موت في القبر ، وسكنت فيه — هي قوت القلوب ؟ ! لقد تركتها صحيحة
الجسم ، فتية ، لا تشكو مرضاً ولا ألماً ، فما الذي أصابها ؟ !

حقاً ! قد يموت الإنسان من غير علّة ؛ وتنتهى حياته إذا جاء أجله
من غير تقدّم ولا تأخّر ؛ ولكن يغلب أن تكون لذلك مُقدّمات ؛

فما هي تلك المُقَدِّمات التي انتابَتْك قبل موتِك يا قوت القلوب ؟
 وظل يُحدِّث نفسه وقتاً ما ؛ ثم اعترته هَزَّةٌ عصبِيَّةٌ شديدةٌ ، جعلته
 يأمر بفتح القبر ، للتأكُّدِ من موت قوت القلوب .

ويُفتحُ القبرَ ، وتُخرجُ منه الدمية المَكْفَنَةُ . ولكن الخليفة يُحجمُ ،
 ويتراجعُ عن الكَشَفِ عنها لضَعْفِ أَعْصَابِهِ عن تحمُّلِ ذلك المنظر المؤلِّمِ
 المُوجِعِ إذا كان الخبرُ صحيحاً ، وإشفاقاً على ذلك الجُثمانِ من امتهانه ؛
 وكانت العجوزُ واقفةً له بالمرصاد ، حتى إذا مدَّ يده على الكفنِ ، أو
 أمر بفكِّهِ . توسَّلتُ إليه ألا يفعل ؛ ولكنه لم يفعل .

وبذلك تَمَّتِ الحُدعة ، وانطلقت عليه الحيلة ، وأيقن بوفاة قوت القلوب ،
 وأمر بتوزيع الصدقات على رُوحها ، وبقراءة القرآنِ حول قبرِها . وهو
 حزينٌ أوجعُ حُزنٍ ، ملتهاعٌ أشدَّ التبعاع .

مرَّت الأيامُ وهو يُخرجُ صباح كلِّ يومٍ ومساءً إلى قبرِها ، ينثرُ
 عليه الأزهارَ ، ويقرأ ما تيسَّر من القرآن ، ويستمطر عليها الرحمةَ
 والرَّضوان .

وبينما هو مضطجعٌ ذات ليلةٍ ، أخذته سِنَةٌ من النوم بعد أن قام
 بزيارته المعتادة للقبر ، وقد جَلَسَتْ عند رأسه جاريةٌ ، وعند قدميه جاريةٌ ،
 تُروِّحان له بأيديهما .

ولم يَلْبَثْ أن انتبه من نومه على قول إحدى الجاريتين للأخرى ،
 وهي تظنُّ أنه نائم !

لَشَدَّ مَا أَنَا حَزِينَةٌ آسَفَةٌ لِحَالِ سَيِّدِي ؛ فَهُوَ لَا يُجَاوِلُ أَنْ يَسَرِّيَ
عَنْ نَفْسِهِ بَعْضَ مَا بَهَا مِنْ حُزْنٍ وَالتَّيَاعِ ، وَلَا يَكْفُ مِنْذُ عَادٍ مِنْ سَفَرِهِ ،
وَعَرَفَ وَفَاةَ قُوتِ الْقُلُوبِ الْمَزْعُومَةِ . عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهَا كُلِّ صَبَاحٍ ،
وَكُلِّ مَسَاءٍ ؛ وَهُوَ كَمَا تَعْلَمِينَ قَبْرُ خَالٍ لَا شَيْءَ فِيهِ .

فَرَفَعَتِ الْجَارِيَةُ الْآخَرَى حَاجِبَيْهَا دَهْشَةً مِنْ قَوْلِ زَمِيلَتِهَا ؛ وَقَالَتْ
مُسْتَفْهِمَةً : مَاذَا تَقُولِينَ يَا قُضَيْبَ الْبَانِ ؟ !

أَقُوتُ الْقُلُوبَ لَمْ تَمُتْ ؟ !

فَقَالَتْ قُضَيْبُ الْبَانِ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ !

أَلَا تَعْلَمِينَ يَا خَيْرُزَانَ ؟ ! سَلِمَ شَبَابُ قُوتِ الْقُلُوبِ وَجَاهُهَا
مِنَ الْمَوْتِ ! !

فَازْدَادَتْ دَهْشَةُ الْجَارِيَةِ ، وَاشْتَدَّ عَجْبُهَا ، وَهَمَسَتْ هِيَ الْآخَرَى قَائِلَةً :
وَلَنْ إِذَا هَذَا الْقَبْرُ الْمَقَامُ فِي وَسْطِ الْقَصْرِ ؟ !
إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ إِلَّا دُمِيَّةٌ صَنَعَهَا النُّجَّارُ .

فَعُمَّ عَلَى الْجَارِيَةِ خَيْرُزَانَ فَهُمْ هَذِهِ الْأَفَازُ ، وَمَعْرِفَةُ تِلْكَ الْأَحَاجِي ،
فَقَالَتْ ! !

وَقُوتُ الْقُلُوبِ مَاذَا أَصَابَهَا ؟ ! وَأَيْنَ هِيَ ؟ !

فَقَالَتْ : إِنْ سَيِّدَتَنَا أَرْسَلَتْ مَعَ جَارِيَتِهَا بَنَجَا أَمْنَاءَ سَفَرِ سَيِّدِي ،
فَدَسَّتَهُ لَهَا ، فَلَمَّا سَرَى مَفْعُولُهُ بِهَا ، وَغَابَتْ عَنْ وَعْيِهَا ؛ وَضَعْتَاهَا فِي

صندوق ، وأرسلته مع صوابٍ ونجيت وكافور ، وأمرتاهم أن يدفنوه
في أحد القبور .

فقلت خيزران مرتاعة : ويلاه !! وتقولين أنها لم تمت ؟ !! إنها
لأشنع ميتة يا أختاه !!

فقلت قضيبُ البان تطمئننها !

كلا إنها لم تمت .

وكيف كانت نجاتها بعد دفن الصندوق في القبر ؟

أجابت : لا علم لي بكيفية نجاتها ، ولكي علمت أنها عند شابٍ
تاجر دِمَشقي يسمى غانم بن أيوب ، وقد شوهدت في داره .
فقلت خيزران :

الحمد لله على نجاتها ، ولقد سرّني هذا النبأ وأثلجَ صدرى ، ولكن
ما السببُ في إقامتها بمنزل هذا التاجر المدعو غانم بن أيوب ؟
ولم لم تأت إلى هنا بعد عودة سيدها ؟
أخشيت يا ترى من زوجته أم خوفاً عليها ؟
فأجابت قضيبُ البان :

لا أدري عن هذا الأمر شيئاً ، وسيان هي هنا أو هناك ما دامت
باقيةً على قيد الحياة .

ولم يُطق الخليفةُ صبراً على التناؤم لسماع بقية الحديث ؛ فإنه قد استنار
وعرف كُلَّ شيءٍ إذ علم أن قوت القلوب حية لم تمت ، وأنها تُقيم في

مَنْزِلِ تَاجِرِ دِمَشْقٍ يُسَمَّى غَانِمِ بْنِ أَيُوبَ . فَهَبَّ قَائِمًا يَعْرِضُ بِهِ الْغَضَبُ ،
وَيَكَادُ الشَّرُّ يُخْرِجُ مِنْ عَيْنَيْهِ ، وَتَكَادُ الدَّمَاءُ الْمُتَصَاعِدَةُ إِلَى رَأْسِهِ أَنْ
تُفَجَّرَ شَرَايِينَهُ .

فَأَجْفَلَتِ الْجَارِيَتَانِ وَأَحْسَتَا بِسُوءِ الْمَصِيرِ ، وَأَسْرَعَتَا بِالْهَرَبِ وَالْفِرَارِ
مِنْ وَجْهِ الْخَلِيفَةِ الثَّائِرِ الْغَاضِبِ .

وَخَرَجَ الْخَلِيفَةُ مُنْدَفِعًا إِلَى مَجْلِسِهِ ، وَاسْتَدْعَى وَزِيرَهُ عَلَى عَجَلٍ ،
وَأَمَرَهُ بِصَوْتِ الْغَاضِبِ الْحَانِقِ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى مَنْزِلِ غَانِمِ بْنِ أَيُوبَ
التَّاجِرِ فِي الْحَالِ وَيَقْبِضَ عَلَيْهِ ، وَيَأْتِيَ بِالْجَارِيَةِ قَوْتَ الْقُلُوبِ مِنْ عِنْدِهِ .
فَأَطَاعَ الْوَزِيرَ الْأَمْرَ ، وَاسْتَصْحَبَ رَئِيسَ الشَّرْطَةِ وَرَجَالَهُ إِلَى مَنْزِلِ
ابْنِ أَيُوبَ لِمُدَاهَمَتِهِ .

وَكَانَ ابْنُ أَيُوبَ جَالِسًا فِي هَذَا الْوَقْتِ مَعَ قَوْتَ الْقُلُوبِ يَتَنَاوَلَانِ
طَعَامَ الْعِشَاءِ ، فَسَمِعَا فِي الطَّرِيقِ هَرْجًا وَمَرْجًا ، وَقَعْقَعَةَ سِلَاحٍ ؛ فَأَطْلَتِ
قَوْتَ الْقُلُوبِ مِنْ إِحْدَى طَاقَاتِ الْمَنْزِلِ ، تَسْتَطْلِعُ الْخُبْرَ ، وَقَدْ حَدَّثَهَا قَلْبُهَا
بِحَقِيقَتِهِ قَبْلَ مَعْرِفَتِهِ .

وَأَطْلَتِ قَوْتَ الْقُلُوبِ مِنَ النَّافِذَةِ ، فَكَانَ مَا رَأَتْهُ مِصْدَاقًا لِمَا تَوَجَّسَّتْهُ
وَتَنَبَّأَتْ بِهِ :

رَأَتْ الْجُنُودَ قَدْ أَحَاطُوا بِالْدارِ إِحَاطَةً السَّوَارِ بِالْمَعْصَمِ ، وَالسِّيُوفُ
مَجْرَدَةٌ بِأَيْدِيهِمْ ، يَنْتَظِرُونَ إِشَارَةَ الْمَهْجُومِ عَلَى الْمَنْزِلِ .

فَارْتَدَّتْ قَوْتَ الْقُلُوبِ إِلَى الدَّخْلِ مُسْرِعَةً ، وَقَدْ شَحِبَ لَوْنُهَا ،

وارتعشت أطرافها ، وقالت لغانم بصوت متهدج :
انهض يا غانم ، وانج بنفسك .
فقال مرتاعا : ما الخبر ؟

قالت : إنهم رجال الخليفة وجنوده ، قد أتوا في طلبنا . فأسرع
بالهرب ، أما أنا فلا خوف على من الخليفة ، وأنا أعلم أنى لن يصيبنى
سوء على يديه .

فقال حائرا : وإلى أين أذهب ، وهنا تجارتى وأحمالى ومالى ؟
فقالت مهيبه به تستحثه على الإسراع بالهرب :
أسرع وإلا ذهبت نفسك ومالك وتجارتك ، والإبقاء على النفس
أولى من الإبقاء على المال ، وما قيمة مال قارون إذا تلفت نفسك ؟
وأنت إذا قدر لك أن تمش أمكنك أن تعوض ما تفقده من تجارتك
ومالك .

فنهض وصار يتجه يمينا ويمحى شمالا ، لا يدرى من أين يفر ؟ ولا
من أى منفذ ينفذ ؟ وأخيرا قال :
إننى لن أهرب ، ولن أفر ، وأدعك هنا وحيدة بين أيديهم ، فسأبقى
معك ، وليسكن ما يكون .

فصرخت فيه قوت القلوب قائلة :

لا تكن أبلا قلت لك إننى لن يصيبنى مكروه ، أما أنت فستكون
في كفة القدر ، وتحت رحمة الخليفة ، والخليفة قاسٍ غيور ، ولن يهلك

حتى أفهمه الحقيقة ، ولكنه سيبادر بإهلاكك ، فانج بنفسك أولاً ،
ودع ما بعد ذلك على الله .

فقال : وإلى أين أتجه ؟ ! وأين المفر ؟ ! وقد أحاطوا بالدّار من كل
جانب .

فقالت : لا تخف ، وتنكر في ثياب رجل مسكين ، واخرج من
بينهم قبل أن يدُقُوا علينا الباب ، ويعرفوا أننا فطنّا إليهم ، فيكشفوا
أمرك .

وبأسرع من لمح البصر ألبسته ثياباً بالية ممزقة ، وأتت بسلة بها
بعض اللحم الذي كان منذ لحظةٍ يأكلان منه كما وضعت بعض كسر
الخبز وبقايا الطعام .

وقالت : انفذ الآن من بينهم مصحوباً بالسلامة .
ولم يتسع الوقتُ بينهما لوداع ، فأخذته من يده وصارت به إلى الباب
وفتحته له ، وهي متوارية خلفه ، وأخرجته منه .

وكان جماعة من الجند على وشك دق الباب واقتحامه .
فأوا رجلاً مسكيناً خارجاً منه ومعه فضلة طعام ، فظنّوه ذا حاجة ،
وتركوه يمضي لشأنه ، وأسرعوا هم بالدخول إلى الدار ، لمباغطة
أهلها . . .

وكانت قوت القلوب قد كرّرت إلى الداخل فسوّت من هيئتها ،

وجمعت حُلِيِّهَا وجواهرها إلى أموال غانم وتُخَفِّه وطرائفه ، ووضعتها في صندوق .

وكبسَ الوزيرُ ورجاله الدار ، وصاروا يفتشون في حُجُرَاتِهَا ، فقابلتهم مُظْهِرَةُ الدَّهْشَةِ من دُخُولِهِمْ ، والفرع من هُجُومِهِمْ ، فلما وقعت عينها على الوزير ، وعرفها وعرفتُه — تقدَّمت منه ، وجشت أمامه ، وقبَّلت الأرض بين يديه تبجَّيلاً له ، وقالت :

يا سيِّدِي جَرَى القَلَمُ منذُ القَدَمِ بما حَكَمَ اللهُ .
فأنهضها الوزيرُ وقال :

لا بأس عليك يا سيِّدَتِي . إنه ما أوصاني إلا بالقبض على غانم بن أيوب . !

فقالت : يا سيِّدِي إنه ليس هُنا ، وقد أخذ تجارته ، وذهب بها إلى دمشق .

فقال دهشاً : كيف ذلك يا سيِّدَتِي ، والعلم عندنا أنه هُنا ؟ !
فقالت : إن خبره ما أخبرتك ، ولا عِلْمُ لي بغير ذلك .
فقال : وكيف أعودُ بك إلى الخليفة من دُونِهِ ، وما غريمُهُ إلا هو ؟ ! !

فهزت كتفها غير مبديّة رأيًا ، وأشارت إلى الصندوق الذي جمعت به ما جمعت من نفائس ، وقالت :

رجائي أن تحفظ لي هذا الصندوق ، وتسأله لي عند وصولنا إلى

قصر أمير المؤمنين ، فهو ملكي الخاص .

فقال : لك ذلك .

ثم صحبها ، وأمر أتباعه بحمل الصندوق ، وأركبها فرساً ، وسار بها إلى قصر الخليفة ، عزيزة كريمة ، مصونة ، بعد أن أباح للجنود نهب دار غانم بن أيوب .

ولما وصل الوزير بقوت القلوب إلى القصر . أدخلها إحدى قاعاته مع نفر من رجاله ، ودخل هو إلى الخليفة وأعلمه بما تم . اشتد غضب الخليفة ، وحنقه على غانم لإفلاته من يده . وبدأ يستخط على قوت القلوب ، لظنه أنها كانت تقيم عند غانم بن أيوب برغبتها ومحض إرادتها .

فأمر بإفراد غرفة لها وحجزها فيها ، ووكل بها امرأة عجوزاً لقضاء حاجاتها .

وأرسل كتاباً إلى عامله بدمشق ، يطلب منه القبض على غانم بن أيوب حال وصول الكتاب إليه .

فما أن وصل الكتاب إلى عامل دمشق ، حتى أرسل المنادي ينادي في الأسواق :

« من أراد أن ينهب فعليه بدار غانم بن أيوب » .

وتوجه الجند إلى دار غانم ، فوجدوا أمه وأخته جالستين تندبان ، وتبكيان عليه ، لغيابه الطويل ، وانقطاع أخباره عنهما ، فقبضوا عليهما ،



ونهبوا دارهما ؛ وذهبوا بهما إلى الوالى .

وسألهما الوالى عن غانم ، فأخبراه أنهما لم يرياهُ منذُ فارقهما من سنةٍ
للاتجار ببغداد .

فأمرَ بإخلاء سبيلهما .

فلما عادتا إلى دارهما وجدتاها قائما نصفصفا ليس بها درهم يُنفقُ ،
ولا حبةً تؤكل ، ولا خلقةً تستر عورة .

فزادت أحزانهما ، وتضاعفَ وجدهما ، وخرجتا إلى الطريق هائمتين
وهما تبكيان من جفنٍ مقروح ، وتنعيان من كبدٍ مجروح ، وتشكوان
إلى الله ظلم الجبار للضعيف .

(٤)

أما الحالُ والمآل اللذان صار إليهما غانم فكانا أسوأ حال ، وأشنع مآل .
هام على وجهه فى الطرقاتِ ، يتلصصُ تلصصَ المجرمين ، ويحتجبُ
اختباء المشبوهين . ينشطُ فى الظلام ، ويحتفى فى النهار كالخفافيش .
وافظته الطرقات إلى العراء ، فهام بين الرمال والكُثبان ، يتوجس
من كل عابر خفية ، ومن كل مار ريبة .

عَضَّه الجوعُ فوهنَ جلده ، وأحرقه الظمأُ فالتهبَ حلقه ، وأرمضه
الهجيرُ فاستعرَ جسده ، وقادته قدماه الواهنتان مع دخول الليل إلى

حدود إحدى القرى ، فارتمى بجانب جدار مسجدٍ بها ، يعماني وقْدَة الحُلى ، ويقابلي تباريحها .

وأتى المصلون إلى المسجد يصلون الفجر ، فسمعوا صوتاً يئنُّ ، ورأوا جسداً يرتجفُ ، فاقتربوا من صاحبه يتعرفون حاله . وأدركوا أنه غريب مريض . فقال له أحدُهم مَنْ أَنْتَ ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ وما سبب مرضك ؟ ففتح غنام عينيه ، ونظر إلى مُحدِّثيه ، وبكى ولم يرد جواباً . فَأَدْرَكَ أَنَّهُ مَرِيضٌ وَجَائِعٌ ؛ فَذَهَبَ ، وَأَتَى لَهُ بِمَسَلٍ وَمَاءٍ ، وَأَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ . ثُمَّ تَقَلَّاهُ هُوَ وَرِفَاقُهُ إِلَى غُرْفَةٍ مَلَاصِقَةٍ لِلْمَسْجِدِ وَرَضَوْهُ عَلَى قَدَرٍ مَا يَعْرِفُونَ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا إِلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَمَضَوْا إِلَى حَالِ سَبِيلِهِمْ .

وما زال هذا شأنهم ؛ يسألون عنه ، ويعودونه ، ويتناوبون كل يوم فيما بينهم إحضار شيء من الطعام والشراب اللذين يُصْلِحَانِهِ ، وَيُنَاسِبَانِ مرضه ؛ وظلوا كذلك شهراً كاملاً .

أما هو فقد ازدادت حالته سوءاً على سوء ، واشتد جسمه ضعفاً فوق ضعف ، وبدا عليه الهزال . فغارت عيناه ، وبرز خداه ، وذاب شحمه ، ودقَّ عظمه ، وصار جلداً على عظم ؛ تقطعته العين ، ويبدؤهُ النَّظَرُ ، ويزكم الأنفَ تَنْنُ الرَّائِحَةِ المنبعثة منه ، وتتألم النفسُ حسرةً عليه ، وتقزُّزاً من أذرائه .

واجتمع قُرْبُ من أهل البلدة يتشاورون في أمر هذا الغريب العليل ، وما ينبغي عليهم فعله معه ، وما تُغْلِيهِ المروءةُ إِزَاءَهُ . فَارْتَأَوْا أَنِ يَحْمِلُوهُ

إلى دار الطبِّ ببغدادَ ، لعله يجد هناك من عناية الأطباء والمرضى ما يزيل عنه عِلَّتَه ؛ وكان الليل قد أقبل فأَجَلُّوا ذلك إلى الصباح .

وفي تلك الليلة حطت بجوارِ المسجد امرأتان بالستان ، لا تسترُهما غير أسمالٍ بالية ، تبغيان من جداره سِتاراً يسترُهما ، ومن حائطه مَلجأً تأويان إليه حتى الصباح .

ووصلت إلى اذانهما أناتُ العليل الخافضة المتقطعة ، فرمّا لحاله ، وخفّتا إليه ، تسألانه ما به ؟ ! وحاولتا العملَ على تخفيف آلامه . فقد أشعرهما بُؤْسُهما مقدار بُؤْسِه ، وأحسّتا لآلامهما مبلغ آلامه .

وإن كان لا يزال بالمريض بقية إدراك ، وفضلة ضئيلة من إحساس بالحياة — أعانته على أن يدرك أن في نفسه حناناً لا يدرى سببه نحو هاتين المرأتين البائستين ، أو أدرك أنه يضمّهما وإياه البؤسُ والحِرمان ، والضنّى والآلام ، وظلّم المجتمع القاسى الذى لا يرحمُ ؛ وما أشدّ قسوته وأمرّها إذا أذاقها بريئاً لم يرتكب ذنباً ، ولم يقترف إنمّا .

وحاول أن يتحدّث إليهما فلم يستطع أن يفعل أو يردّ جواباً ؛ وإنما استطاع أن يُشير لهما إشارةً خفيفةً إلى حيث كان بجانب رأسه بعض فضلات من طعام ، وكسرات من الخبز ، جاد عليه بها أهل الخير ، ولم يستطع أن يذوقها لشدة مرضه ، فلعلهما تجدان فيها زاداً يردّ جوعَهما . ولم ترفض الفقيرتان ، لأن كَلَبَ الجوع عضّهما ، فأكلتا من طعامه ، وقضيتا ليلتهما بالقرب منه .

ولما أصبح الصباحُ حضر إلى المسجدِ نقرٌ من أهلِ البلدةِ ، ومعهم
 حَمَلٌ وجَلٌ ، وأتوا إلى غانمٍ فحملوه فيما بينهم عِظامًا ملفوفةً في ثياب
 مُهلهلةٍ قذرةٍ ، حالَ لونِها مما تراكم عليها من أوساخ . يظهرُ من بينها
 وجهٌ معرُوقٌ ، يتوسطه عَيْنَانِ مُسْبِلَتَانِ كَأَنَّهُمَا يَخْبُوُ مِنْهُمَا بَرِيقُ الْحَيَاةِ .
 ووضعوه فوقَ الجملِ ، وقالوا لصاحبه :

اذهبْ بهذا المريضِ إلى بغدادَ ، وأنزله أمامَ بابِ المارستانِ ، لعله
 يعالجُ ، وتُصِيبَهُ العافيةُ ؛ ولكَ عندَ الله الأجرُ والثوابُ .

فقال الجمالُ : سأَحْمِلُهُ إلى المارستانِ ، وأَجْرِي على الله ، وإن كنتُ لم
 أُرْزَقْ في هذا اليومَ شيئًا . وسار به الجمالُ ؛ والمرأتانِ الفقيرتانِ تنظرانِ
 إِلَيْهِ ، وتبكيانِ لحاله ، وتقول كبراهما : إني لأجدُ ريحَ غانمِ .

فترد الصُغرى ! وفي وَجْهِهِ مَلَامِحُهُ وَقَسَمَاتُهُ ، وفي صَوْتِهِ الخافتِ
 نبراتِهِ ، وفي جَفْنَيْهِ المنكسرَيْنِ الدَّابِلَيْنِ أَلْحَاطُهُ ، وتحومُ حولَ شَفَتَيْهِ
 ابتسامةٌ شاحبةٌ كأنها ابتسامته ! كأنه هو .

ثم تنصرفانِ تجددانِ الحزنَ ، وتُطْلِقَانِ الدُّمُوعَ .

الكبرى على ولديها ، والصُغرى على أخيها .

وكان الولدُ ، والأخُ . هو غانمُ بنِ أيوبِ .

وكان أُمَاهُمَا ، وبين يَدَيْهِمَا ، ولكنهما لم تَعْرِفَاهُ ، ولم يَعْرِفَهُمَا ، فقد
 نالَ منه البؤسُ حتى غَيَّرَهُ ، ونالَ منهما الحزنُ حتى غَيَّرَهُمَا ، فلم تعرفِ
 الأمُ ولدها ، ولا الأختُ أَخَاهَا ، إِلَّا أَنَّهُمَا وَجَدَتَا رِيحَهُ ، وأحسَتَا عَطْفًا

عليه ، وحناناً إليه ، لم تُدرك سببه . ووصل الجمال بالليل إلى بغداد ، وسار به إلى المارستان ، وكان الوقتُ ليلاً ، وأنزله بيابه ، حتى يخرج الخدم في الصّباح فيجدوه بالباب ، فيأخذوه ، ثم تركه وانصرف .

ولما دبّت الحياةُ في الطرقات ، وخرج التجارُ إلى متاجرهم ، وجدوا غائماً مُلقى أمام باب المارستان تتردد أنفاسُه ببطءٍ وخُفوتٍ . فاجتمعوا من حوله بعضهم يقول إنه رجلٌ ميّتٌ ، وبعضهم يقول إنه لا يزال على قيد الحياة .

وكان شيخُ السوق مآراً ، فلما رأى الناسَ مجتمعين ، فسألهم علامَ يجتمع هؤلاء الناسُ ، فوصفوا له حال المريض ، ففرّق الناس ، ونظر إلى وجه المريض وقال: إن هذا المريض يحتاجُ إلى أيدٍ رحيمة ، وعناية بالغة ، ولو تلقته أيدي الخدم بالمارستان يوماً واحداً لما اهتموا به ، وماتت أماتهم كما يموت الحيوان ، فإنهم قساةٌ غلاظ القلوب ، لا يعرفون رحمة ، ولا شفقة . وكان هذا الشيخُ رجلاً ذا مروءةٍ ، ورحمةٍ ، فأمر غلمانُه بحمل المريض

إلى داره فحملوه إلى الدار ، وهو معهم ، فلما وصلوا ، قال لا ترأته : رَجَأَى إِلَيْكَ أَنْ تَمْرُضَى هَذَا الْمَرِيضَ لَعَلَّه يُشْفَى ، وَسَيَكُونُ جَزَآؤُكَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً .

فَقَالَتْ : سَمِعاً وَطَاعَةً ، وَعَلَى الرَّحْبِ وَالسَّعَةِ .

وكانت المرأة لا تَقِلُّ عَنْ زَوْجِهَا عَطْفًا وَشَفَقَةً وَهَمَةً ، فَتَهَيَّأَتْ لِهَذَا الْأَمْرِ رَاضِيَةً وَمُنَحَّتَ الْمَرِيضَ كَثِيراً مِنْ وَقْتِهَا ، وَعِنَايَتِهَا ، وَرِعَايَتِهَا .

فَأَتَتْ بِمَاءٍ سَاخِنَ ، وَغَسَلَتْ لَهُ أَطْرَافَهُ ، وَاسْتَبَدَلَتْ بِمَلَابِسِهِ مَلَابِسَ
 أُخْرَى نَظِيفَةً بِمَعُونَةِ بَعْضِ خَدَمِهَا ، وَرَشَّتْ عَلَى وَجْهِهِ مَاءَ الْوَرْدِ ، فَأَفَاقَ
 مِنْ غَشِيَّتِهِ ، وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَسَقَطَتْ شَرَابًا دَافِقًا أَنْعَشَ جِسْمَهُ ، وَأَجْرَى فِي
 عُروِقِهِ دَمَ الْحَيَاةِ ، فَأَرَقْدَتْهُ عَلَى فِرَاشٍ ، وَدَثَّرَتْهُ بِالْأُغْطِيَةِ .

(٥)

وَضَلَّتْ قُوَّةُ الْقُلُوبِ بِمَجْبَسِهَا بَعْدَ غَضَبِ الْخَلِيفَةِ عَلَيْهَا مَا يُنْفِى عَلَى
 الثَّمَانِينَ يَوْمًا ، تُعَانِي الْوَحْدَةَ ، وَتَتَعَلَّلُ بِالْأَمَالِ إِلَى أَنْ كَانَ يَوْمٌ اتَّفَقَ بِرُورِ
 الْخَلِيفَةِ فِيهِ بِمَكَانِهَا ، فَطَرَقَ سَمْعُهُ صَوْتُهَا تُنْشِدُ الْأَشْعَارَ الْحَزِينَةَ ، وَتَتَرَنَّمُ
 بِالْأَصْوَاتِ الْبَاكِيةِ ، فَتَمَهَّلَ فِي سَيْرِهِ يَسْتَمِعُ ، فَسَمِعَهَا تَقُولُ وَهِيَ تَبْكِي :
 آه يَا غَانِمَ ! ! مَا أَحْسَنَكَ ! ! وَمَا أَعَفَّ نَفْسَكَ ! ! أَحْسَنْتَ إِلَى مَنْ
 أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَحَفِظْتَ حَرَمَةَ مَنْ ضَيَّعَ حَرَمَتَكَ ، وَحَفِظْتَ وَدَّ مَنْ
 لَا يَحْفَظُ الْوُدَّ ، وَجَامَلْتَ مَنْ لَمْ يُجَامِلِكَ ، وَسَبَّكَ وَسَبَّى أَهْلَكَ ؛ وَلَا بَدَّ
 أَنْ تَقِفَ أَنْتَ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ يَدَيِ حَاكِمٍ عَادِلٍ ، وَتَنْتَصِفُ مِنْهُ ، يَوْمَ
 يَكُونُ الْقَاضِي هُوَ اللَّهُ ، وَالشَّهُودُ مَلَائِكَةُ اللَّهِ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْخَلِيفَةُ قَوْلَهَا ، وَبَكَاءَهَا ، خَشَعَ قَلْبُهُ ، وَأَدْرَكَ أَنَّهُ غَبِنَهَا ،
 وَظَلَمَهَا فَقَصَدَ إِلَى جَنَاحِهِ ، وَأَمَرَ بِاسْتِدْعَائِهَا إِلَيْهِ .
 فَأَتَتْ وَوَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ مُطَرِّقَةً حَزِينَةً .

فَقَالَ لَهَا : يَا قُوَّةَ الْقُلُوبِ ، أَرَأَيْكَ تَنْظُمِينَ مِنِّي ، وَتَنْسُبِينَ إِلَى الْغَدْرِ

وترعين أنى أسأت لمن أحسن إليّ، فمن هو الذى حفظ حرمتي، واتهكت
حرمته، وستر حريمي، وحفظ على عِرْضي، فلم أحفظ عِرْضه، وجأملني،
ولم أجامله ؟ .

فسكتت، وأطرقت، وأنهمر من عينيها دمعٌ غزير .
فقال : تكلمي، ولا تخافي، أريحي قلبي، أرح قلبك .

قالت : هو غانمُ بن أيوبَ، فإنه أتقذ حياتي، وآواني، وما مسني
منه سوء، وأراد أن يتزوج مني، فلما علم أني مملوكةُ الخليفة أحجم،
وتهيب احتراماً له، وعاملني معاملة الأخ الكريم .

فقال الخليفة، بعد أن أطرق هنيهة : سبحان الله !! وأين هو الآن ؟
فقلت : لا علم لي بمكانه، وقد انقطعت عني أخباره، وأظنه
شريدًا طريدًا، هائمًا على وجهه، فإنه لا مال معه، ولا مأوى له، فقد
سمعت أن رجالك نهبوا داره بدمشق، وشردوا أهله .

فعاد الخليفة إلى إطراره مفكرًا، ثم رفع رأسه إلى قوت القلوب،
وقال : حقًا . لقد ظلمناك، وظلمنا صاحبك، وعلى أن أعوضك عما لحقتك
فتمنى على قوت القلوب، تنال ما تتمنين ..

فقلت قوت القلوب : أحقًا يا مولاي تنيلني ما أتمنى، ولا تبخل

علىَّ به ؟ !

فقال : إني وعدتك وعد رجلٍ حرٍّ، ووعد الحرَّ دينٌ عليه .

قالت : تمنيتُ عليك يا أمير المؤمنين غانمُ بن أيوب .

قال : إِنَّهُ فِي أَمَانٍ .

قالت : وإن أَحْضَرْتَهُ تَهْمِينِي لَهُ ؟

قال : أَهْبُوكِ لَهُ هِبَةً مِنْ لَا يَرْجِعُ فِي عَطَائِهِ .

فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ ، وَقَالَتْ :

إِذْنِ ائْذَنْ لِي فِي الْبَحْثِ عَنْهُ .

قال : افْعَلِي مَا بَدَأَ لَكَ .

وَخَرَجَتْ قُوَّةُ الْقُلُوبِ مِنْ لَدُنِ الْخَلِيفَةِ لَا تَسْمَعُ الدُّنْيَا ابْتِهَاجًا

وَسُرُورًا ، فَقَدْ نَالَتْ مَا كَانَتْ تَحْلُمُ بِهِ .

نَالَتْ الْحُرِّيَّةَ ، وَأَخَذَتْ الْأَمَانَ لَهَا ، وَوَهَبَتْ لَهُ .

آه مَا أَحْلَى الْحَيَاةَ ، لَوْ كَانَ بِجَوَارِهَا الْآنَ غَانِمٌ .

وَصَدَمَتْهَا الْحَقِيقَةُ الْمُرَّةُ .

أَيْنَ مِنْهَا الْآنَ غَانِمٌ ؟ ! مَا أُدْرَاها ! ! إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ خَلْفَ الدَّيَارِ هَرَبًا

مِمَّا جَرَى عَلَيْهِ بِسَبَبِهَا ؟ مَنْ يَعْلَمُهَا بِمَقَرِّهِ ؟

وَانْقَلَبَ فَرَحُهَا تَرْحًا ، وَسُرُورُهَا حُزْنًا ، وَابْتِهَاجُهَا غَمًّا وَنَكْدًا .

لَا بَدَّ لَهَا أَنْ تَجِدَ فِي الْبَحْثِ عَنْهُ ، بِأَذَلَّةٍ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ الْجَهْدِ ، وَالْوَقْتُ

وَالْمَالُ . وَلَمْ تَتَوَانَ ، فَاتَّجَهَتْ مِنْ فَوْرِهَا إِلَى صَنْدُوقِ مَالِهَا ، وَأَخَذَتْ مَبْلَغًا

كَبِيرًا مِنْهُ ، وَأَرْسَلَتْ رِسَالَهَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَمَجَالِسِ الْفُقَرَاءِ ؛ فَأَعْطَتْ ،

وَتَصَدَّقَتْ ، وَوَهَبَتْ ، مَفْتَتِحَةَ عَمَلِهَا وَسَمْعِيهَا بِفِعْلِ الْخَيْرِ ، وَتَرْجُو مِنْ وَرَائِهِ

أَنْ يَعْتُرَهَا اللَّهُ عَلَيْهِ بَيْنَ هَؤُلَاءِ .

وفي اليوم الثاني ، أخذت مبلغاً آخر ، وأرسلت به رسلاً إلى السوق التي كان يتجرف فيها غانم ، وأمرتهم أن يذهبوا إلى شيخ السوق ، وأن يعطوه المال ، ويقولوا له ! تصدق بهذا المبلغ على الغرباء ، وكل من كان منهم في عوز ، أو ضائقة ، فالسيدة قوت القلوب تسد عوزه ، وتفرق ضائقته .

وفي اليوم الذي يليه ، أرسلت رسلاً إلى شيخ سوق الصّاعة ، وعملوا معه مثل الذي فعلوه بالأمس .

فقال لهم : أبلغوا سيدتكم هل لها أن تذهب إلى داري ، وتنظر في أمر شابٍ مسكينٍ غريبٍ عندي ، ألحَّ عليه المرضُ ، وأضنته العلةُ .

فلما أبلغوها حديث شيخ سوق الصّاعة ، خفق قلبها ، وأحست به يتعشى بين ضلوعها ، وخطر لها أن يكون هذا الغريب المريضُ غانم بن أيوب .

فذهبت إلى الشيخ ، وقالت له : حبا وكرامة . أرسل معي أحداً غلاماً نك يرشدني إلى منزلك ؛ لأرى هذا الغريب المكروب .

فأرسل معها صبياً صغيراً ، أوصلها إلى الدار ، فدخلت إلى زوجة الشيخ ، فعرفت أنها قوت القلوب ، جاريةُ الخليفة ؛ فقامت إليها ، ورحبت بها ، ولما عرفت ما تريد صحبتها إلى القاعة التي بها غانم .

ونظرت قوت القلوب إلى غانم ، ولكنها أنكرته ، وغُمَّ عليها الأمر ؛ رأت جداً ضامراً تحت الأغطية لا يكاد يرى ، يعلوه رأسٌ معصوبٌ بعصاية ، تبرزُ فيه عظمتان ناتئتان هما وجنتاه تنحدران إلى أخذودين

غَارِين وهَوَّتِينَ دَاكْتِينَ ، هَا عَيْنَاهُ ، فَقَالَتْ :

رَبَاهُ اَكْنِ فِي عَوْنِ هَذَا الْمَرِيضِ الْبَائِسِ ، وَاَكْتُبْ لَهُ الشِّفَاءَ .

يَا تَرَى مِنْ يَكُونُ ؟؟

هَذَا مَا تَمَتَّتْ بِهِ قُوَّةُ الْقُلُوبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا ؛ ثُمَّ التَفَتَتْ إِلَى

امْرَأَةِ الشَّيْخِ وَقَالَتْ لَهَا :

مَنْ أَيْنَ جَاءَ كُمْ هَذَا الْغَرِيبُ ؟؟

أَجَابَتْ : وَجَدَهُ زَوْجِي مُلْقًى فِي الطَّرِيقِ ؟ وَلَا نَعْرِفُ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ،

وَإِنْ كُنَّا نَرْجَحُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِزِّ وَالنِّعْمَةِ ، وَجَارٍ عَلَيْهِ الزَّمَانُ .

فَقَالَتْ قُوَّةُ الْقُلُوبِ رَائِيَةً : حَقًّا إِنْ الْغُرَبَاءُ مَسَاكِينُ ، وَإِنْ كَانُوا

أُمَرَاءَ فِي بِلَادِهِمْ ، ثُمَّ سَأَلَتْهَا عَمَّا يَتَنَاوَلُهُ مِنْ أَغْذِيَةٍ وَعِلَاجٍ ، فَعَرَفَتْهَا بِمَا تَعْدُهُ

لَهُ ، فَعَاوَتْهَا فِي إِعْدَادِهِ وَتَحْضِيرِهِ ، وَبَقِيَتْ يَجْوَارِ الْمَرِيضَ بِمَضَى الْوَقْتِ ،

ثُمَّ انْصَرَفَتْ ، وَفِي قَلْبِهَا شَعُورٌ غَامِضٌ مِنَ الْخَنَانِ وَالْحُبِّ وَالشَّفَقَةِ بَعْدَ أَنْ

وَعَدَتْ صَاحِبَةَ الدَّارِ بِمَعَاوِدَةِ زِيَارَتِهَا لِلْمَرِيضِ .

وَدَأَبَتْ قُوَّةُ الْقُلُوبِ عَلَى تَقْصِي الْأَخْبَارِ عَنْ غَائِمِ وَالسُّؤَالِ عَنْهُ ،

وَلَكِنْ دُونَ نَتِيجَةٍ ، فَلَمْ تَقْعْ لَهُ عَلَى خَبَرٍ ، وَلَمْ تَسْمَعْ عَنْهُ نَبَأً .

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ أَتَاهَا شَيْخُ السُّوقِ الَّذِي يَأْوِي فِي دَارِهِ غَائِمًا ، وَكَانَتْ

بِمَقَامِهَا بِقَصْرِ الْخَلِيفَةِ ، فَاسْتَأْذَنَ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهَا ، فَأَذْنَتْ لَهُ ، فَقَالَ لَهَا :

يَا سَيِّدَةَ الْمَحْسَنَاتِ ، قَدْ دَخَلَ مَدِينَتُنَا الْيَوْمَ ، امْرَأَةٌ وَابْتِئَاهَا ، تَنْطَلِقُ

سَمَاتِهَا بِالْبُؤْسِ وَالشَّقَاءِ ، وَتَعْبُرُ قِسْمَاتِهَا عَمَّا لَقِيَتْهُ مِنْ ذَلٍّ وَهَوَانٍ ، وَيَكْسُو

وجههما الخجل والحياء ، ويقينى أنهما كانتا من أهل النعمة والثراء ، وغدر بهما الزمان . وهما لابستان ثياباً من شعر ، وفي رقبة كل منهما مخلاة من خز ، وقد أتيت بهما إليك ؛ لتأويهما ، وتكفيهما شر التسول ، ولك عند الله حسنُ الجزاء .

فقال قوت القلوب :

يا سيّدى ، لقد عطفت قلبى عليهما ، فأين هما ؟

قال : بالباب .

قالت : إلىّ بهما .

وأمرت الخادم باستدعائهما .

فلما دخلتا عليها ، ونظرت إليهما — وجدتهما ذواتى حسنٍ وجمال ، رغم شحوبهما وهُزالهما ، ورأت علامات الحزن مرتسمةً على وجهيهما ، فرثت لخالهما ، وقالت :

مرحباً بكما ، من أتما ؟

فردّت الصغيرة : أنا اسمى فتنة ، وهذه أمى .

فقال قوت القلوب : إنك فتنة للناظرين كاسمك يا فتنة ، ومن أين

أقبلتما ؟

فاهمرت الدموع من عيني الفتاة ، وخنقتها العبرات ، فلم تستطع الرد .

فقال الشيخ : لا بأس عليك يا بنيتى نحن نحب الفقراء ، ونأخذ بيد

ذوى الحاجة والضعفاء ، فسرى عنك ، ولا تبتئسى ، والله يكلؤك ،

ويرعاك . ولعل الله أراد خيراً حينما ألهمني أن آتي بكما إلى أعطف النساء ،
وأرفهن قلباً وأكثرهن حناناً .

فقلت قوت القلوب ، وقد أثر فيها ما هما عليه من البؤس والضنك :
صدق يا سيدي ، فإنهما من أهل نعمة وعزٍّ وجاهٍ .
ولم تتمالك المرأتان نفسيهما ، فأجهشتا بالبكاء ، فبكت لبيكاهما
قوت القلوب ، ثم قالت :

لا تخافا ، ولا تحزنا ، فسيعوضكما الله خيراً ، وسيبدل لكما بالبؤس
نعماً ، وبالذل عزاً ، وبالضيق سعة .

فقلت الأم : واجعنا يا إلهي بحبيبتنا وعزيزنا ولدي غانم بن أيوب .
فبُهِتت قوت القلوب لقول المرأة ، وعرفت أن هاتين المرأتين هما
أم غانم ، وأخته ، وأنهما مشردتان في الأرض تبحثان عنه ، وأن مطلبهما
هو مطلبها ، وأن غايتهما هي غايتها .

فاهتز قلبها حناناً لهما ، وازدادت نفسها حسرةً عليهما ، وعلى ما آلت
إليه حالهما ، ولا سيما أنها كانت السبب الأول فيما أصابهما من سوء ،
ووقع بهما من محنة .

فتنهدت ، وأطرقت برهةً إلى الأرض ، ثم رفعت رأسها ، وقالت :
لا بأسَ عليكما ؛ فالיום أولُ سمادتكما ، وآخرُ شقائكما ، وسيجمعكما
الله قريباً بمن تحبان ، فلا تيمئسا من رحمة الله .

ثم طلبت من الشيخ ، أن يأخذها إلى منزله ، ويوصي زوجته بهما

خيرًا ، ولتعمل على إكرامهما ، فتدخلهما حمامًا ، وتلبسهما ثيابًا حسنة ،
وتقردهما حُجرةً ، وأعطته نظير ذلك جملة كبيرة من المال .

وفي اليوم الثاني ركبت قوت القلوب ، ومضت إلى منزل الشيخ ،
فقابلتها زوجته بالترحاب ، ووجدت أم غانم ، وأخته جالستين ، وقد
أظهرتهما اللباس النظيفة الثمينة في مظهر جميل ، وبدت عليهما مخايل
النعمة والجاه . فجلست معهما تتحدثُ وقتًا ، ثم قالت لصاحبة الدار :

ما حال مريضك ؟

فقالت زوجة الشيخ : على ما هو عليه .

قالت : هيا بنا إليه لنعوده .

فقمن إليه جميعًا ، وجلسن عنده .

وكان غانم قد ابتدأ يصحُّ ذهنه ، ويتذكرُ حاله ، وحبّه ، ولوعته ،
وتشرده ، فترسم أمام عينيه صورة جميلةً قبيحةً مضبئةً مظلمةً ، ليس
لجمالها ونورها حدودٌ ، وليس لقبحها وإظلامها حدود كذلك .

وبينما هو راقدٌ شاردُ العقل ، مختلطُ الفكر ، سابحٌ في تأملاته ،
يستعرض ماضيه ، طرق سمعه صوت النسوة ، وهُنَّ يتحدثن ، وسمعهنَّ
يتادين قوت القلوب .

تخفق قلبه ، وفتح عينيه ، وأدار رأسه إلى ناحيتهن ، ونادى بصوت
ضعيف خافت : يا قوت القلوب :

وبدافع لاشعوري هبت قوت القلوب مليئةً النداء ، قائلة :

نعم يا حبيبي .

ونظرت إلى وجهه فتيقنته ، فقالت :

إنه غانم بنُ أيوب !

فقال : نعم أنا هو ! اقتربي مني ! تعالى إلى ! تاولينى يدك !

فاتجهت إليه ، ووقعت مغشياً عليها .

وسمعت الأم صوت غانم ، ورنّت في أذنها نبراتة ، والتقت عيناها

بعينه ، فصاحت :

غانم !! ابني !! حبيبي !! قلبي !! كبدى !! حياتي !! نور عيني !!

وكذلك سمعت الأخت صوت غانم ، ورن في أذنها نبراتة ، والتقت

عيناها بعينه ، فصاحت :

غانم !! أخي !! عضدى !! ساعدى !!

ثم سقطتا مغشياً عليهما من شدة الفرح .

ولما أفقن التففن حول غانم ، وأخذت أمه ، وأخته ^{تقبلاً} قبلاً ،

وتسألانه عن حاله ، وصاحبة الدارتهنهن جميعاً باجتماع شملهن بعد

طول الغياب .

وأخبرت قوت القلوب غانماً بمفوء الخليفة عنهما بعد أن عرف منها

طيب خصاله ، وحسن أخلاقه ، وبأنه قد وهبها له ، وبأنه يود أن يراه

ففرح غانم ، وابتعثت نفسه ، وقويت رُوحه ، واشتد عزمه ،

وشعر أن الشفاء يُعاده سريعاً ، فقام ، وجلس معهن ، يسمع منهن ،

ويسمعن منه ، فكأنه لم يدخل جسمه مرضٌ . وكأنهن لم يتعذبن من
أجله ، فبردت القلوب ، وارتوت الأكباد ، واستروحت النفوس .
واستهلتهم قوتُ القلوب بعض الوقتِ ، وخرجتُ ، ثم عادتُ
ومعها صندوق الجواهرِ والمالِ والأشياء التي جمعتها من دار غانم ، يومَ
قبض عليها .

وأخرجت للشيخ مبلغاً من النقود وطلبت منه أن يبتاع لـسكلاً من
من غانم وأمه وأخته حُللاً من أنفُس ما في الشوق ، وأقامتُ في منزل
الشيخ بضعة أيام تعني بأمر غانم وأمه وأخته ، وتطعمهم مساليق الدجاج
والفاكهة ، وتسقيهم ماء السكر والزهر .

وكان قرب قوت القلوب من غانم من أكبر العوامل التي ساعدت
على إصلاح نفسه وعجأت بشفائها .

أمّا أمه وأخته فقد فاضت بهما الهناءُ والسعادةُ ، وعادت إليهما
صحتهما وحيويتُهُما ، وزادت فتنةُ ففاضت ملاحظتهما ، وصارت حقاً ،
فتنةً للنّاظرين .

وعادت قوت القلوب إلى قصر الخليفة ، وطلبت الإذن لها بالدخول
عليه ، فأذن لها .

فدخلت عليه ، وقصّت له خبر غانم وأمه وأخته .

فقال لها : على بغانم .

فرجعت إلى غانم وأعلمته رغبة الخليفة ، ثم أعدت له الحمام فاغتسل

والبسته حلة جميلة ثمينة ، وأعطته مبلغاً كبيراً من المال ، وقالت له :
 ابذل العطاء لحاشية الخليفة ، ولا تبخل ، وعليك في حضرة أمير
 المؤمنين بثبات الجنان وفصاحة اللسان ، وعذب الكلام .
 ثم صحبته هو وأمه وأخته إلى قصر الخليفة .

وكان الخليفة في مجلسه يحيط به وزراءؤه ، وأرباب دولته ، وأعلن
 الحاجب اسم غانم بن أيوب ، وكان جميع الجالسين يملكون غضب الخليفة
 عليه ، ثم رضاه عنه ، فشخصت أبصارهم نحو الباب ، يتلهفون على رؤيته
 ودخل غانم ؛ فرأوه شاباً وسيماً فارعاً ، وإن كان به بعض الضمور
 والشحوب من أثر مرضه النفسى الطويل .

ونهض الوزير الذى ذهب يوماً للقبض عليه ، فقدمه إلى الخليفة
 والجالسين ، وألقى غانم التحية ، ثم ألقى إلى الأرض ، وتحدث بلسان
 فصيح ، ومنطق سليم ، سرّ الحاضرين ، وبدأ على وجه الخليفة الرضا
 عنه ، وقال له :

قصّ على يا غانم قصتك ، واذكر كل ما لاقيت ، وما قاسيت .
 فقصّ غانم قصته من يوم أن خرج بتجارته حتى مشوله بين يديه .
 فعجب الخليفة والسامعون أشد العجب وقال :

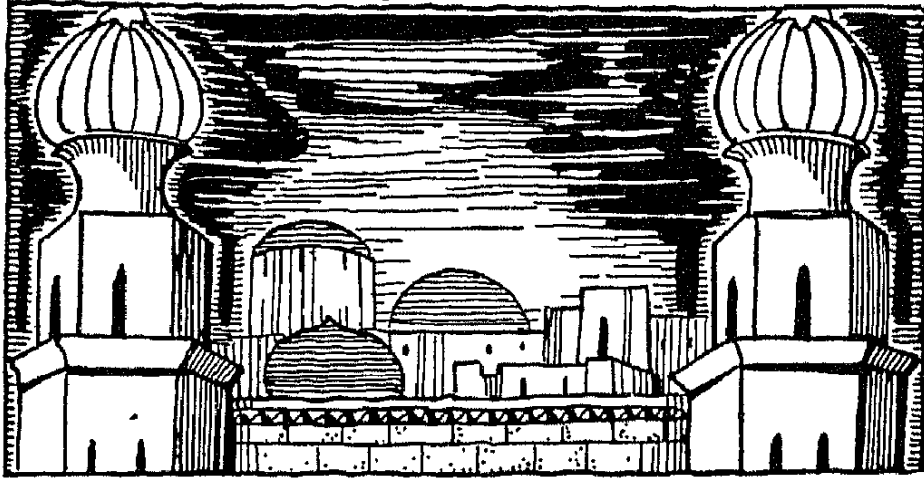
حقاً يا غانم ، لقد قاسيت كثيراً ، وظلمك الزمن ، وقسا عليك ،
 وإن شئت فقل : إني أنا الذى ظلمتك وقسوت عليك ، وسأكفر لك
 عن هذا كله لأبرى ذمتي ، وأرضى ضميري .

فقال غانم : يا مولاي ، العبد وما ملكت يداهُ لسيِّده .
فسرَّ الخليفةُ منه ، وسأله عن أمه وأختيه ، فقال :
إنهما برِضا في أسعدِ حالٍ ، وأهنأ بالٍ ، وأرغد عيشٍ ،
وأكرم منزلٍ .

فأنعم عليه الخليفة ، وخلع عليه ، وأمرَ بإفراد قصر له ولأمه وأخته .
وبعد عدَّة أيام دَعَا الخليفةُ غانمًا إليه ، وكان قد سمعَ بفِرْطِ جمال
أخته فتنة ، وقوَّةِ جاذبيَّتها ، وكثرةِ أدبِها ، ورجاحةِ عقْلِها ؛ فخطبها منه
فَفَرَحَ غانمٌ ، وقال : يا مولاي ، إنه شرفٌ ليس فوقه شَرَفٌ تَعْمُرُنا
به ، فهي جاريتُك ، وأنا مملوكُك .

وفي الغد حضر القاضي ، واجتمع الشهود .
وعقد للخليفة على فتنة .

وعقد لغانم بن أيوب على قوت القلوب .
وانتقلت قوت القلوب من قصر الخليفة إلى قصر غانم .
واسكنها لم تخل مكانها من قصر الخليفة ، ولا من قلبه .
فقد أحلَّت محلَّها فتنة التي احتلَّت من قلبه المسكان الأوَّل .



مدينة النحاس

(١)

كان في الأيام الخوالي بدمشق خليفة يُسمّى عبد الملك بن مروان ،
وكان يجتمعُ إليه أ كابر دولته ومُساوِرُوهُ كلَّ ليلة في دار ضيافته وسَمَرِهِ ،
يتناولون بالحديث طرائف الحوادث ، وأخبار الأمم السّوالف ، ومَرَّ
بهم الحديثُ على سيدنا سُلَيْمانَ بن دَاوُدَ عليهما السلام ، وما وُهِبَ له
من مُلك لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟ فسخر الله له الرياحَ تجري بأمره رُخاءً
حيثُ أصاب ، والشياطينَ كلَّ بناء وغواص ، وعلمه مَنطق الطير ،
وعنّت له الوحوشُ وغيرها من صنوف الحيوان ، وكان يحبس العُصاةَ
من مردة الجنِّ في قِمام نحاسية ، ويُحكّم غطاءها ويختتمها بخاتمه ، ثم يلقِيها

في البحر ، جزاء بما اجترحوا من سيئات وارتكبوا من آثام ، فقال
أحد السامرة ، وكان طالب بن سهل :

رَكِبَ جَمَاعَةٌ فِي فُلْكَ لَهِمْ ، وَجَرَى بِهِمْ عَلَى أَدِيمِ الْبَحْرِ يُؤْمُونَ بِهِ
بِلَادَ الْهِنْدِ ، وَفِي لَيْلَةٍ طَوِيلَةٍ تَرَا كَمْتُ ظِلْمَاتِهَا ، إِذَا أَخْرَجَ أَحَدُهُمْ يَدَهُ
لَمْ يَكْذُ يَرَاهَا ، هَبَّتْ عَلَيْهِمْ رِيحٌ عَاتِيَةٌ ، فَسَاقَتْ فُلُكَهُمْ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى
لَا يَعْرِفُونَهَا وَهُمْ فِي فِزَعِهِمْ مُسْتَسْلِمُونَ .

وَمَا لَاحَ لَهِمْ وَجْهَ الصَّبَاحِ حَتَّى جَاءَهُمْ مِنْ مَغَارَاتٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ
قَوْمٌ سُودُ عُرَاةٍ تَرْتَفِعُ أَصْوَاتُهُمْ يَبْلُغَةُ لَا يَفْقَهُونَ لَهَا مَعْنَى ، وَلَا يَفْهَمُونَ
لَهُمْ حَرَكَةً أَوْ إِشَارَةً ، فَخَرَجُوا بِذَلِكَ مِنْ فِزَعٍ إِلَى فِزَعٍ ، وَمِنْ شِدَّةٍ إِلَى
شِدَّةٍ ، وَكَادَتْ قُلُوبُهُمْ تَسْقُطُ مِنْ صُدُورِهِمْ تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ ، وَسَرَّعَانَ أَنْ
سَرَّى عَنْهُمْ رَئِيسُ الْقَوْمِ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَيَتَكَلَّمُ بِهَا مِنْ
دُونِ قَوْمِهِ ، فَنَادَاهُمْ أَنْ يَحْضُرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَلَمْ يَجِدُوا مَنَاصِمًا مِنَ الْاسْتِجَابَةِ
لِنِدَائِهِ وَالْحَضُورِ إِلَيْهِ ، فَخَيَّاهُمْ وَتَلَطَّفَ فِي الْحَدِيثِ مَعَهُمْ حَتَّى انْسَوَا
وَاطْمَأْنَنَتْ قُلُوبُهُمْ ، ثُمَّ سَأَلَهُمْ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالُوا : لَا نَعْرِفُ عَنْهُ
شَيْئًا ، إِذْ كَانُوا مِنْ لَمْ تَبْلُغُهُمْ رِسَالَتُهُ ، وَلَمْ يَتَدِينُوا بِهِ ، فَقَالَ : وَمَا جَاءَ بِكُمْ
إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي لَمْ يَطَّأَهَا قَدَمٌ لِأَجْنَبِيٍّ مِنْ بَنِي آدَمَ قَبْلَكُمْ ؟ فَأَخْبَرُوهُ
حَادِثَةَ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي سَاقَتْهُمْ إِلَى تِلْكَ الْأَرْضِ كَرَّهَا ، فَقَالَ :
لَا خَوْفَ عَلَيْكُمْ فَأَنْتُمْ آمِنُونَ ، وَأَطْعَمَهُمْ لَحْمَ طَيْرٍ وَسَمَكٍ وَوَحْشٍ
مِمَّا يَأْكُلُ الْقَوْمُ .

ثم سارَ بهمُ في مناحي أرضه يتفرجون ، فرأوا فيما رأوا صيادًا
أخرَجَتْ شَبَكَتَهُ من البحر ققما نحاسيًا ، ولما فَضَّ غِطاءه خرج منه
دُخان كثيف أزرق ، جعل يمتد ويعلو حتى كاد يبلغ عنان السماء ، وُسْمِعَ
صوتٌ من خلاله يقول : التوبة ، التوبة ، يابني الله ، ثم تحول الدخان إلى
شخصٍ عظيم الخَلْقَةِ ، بشع المنظر ، لا يراه أحدٌ حتى يذوبَ رعبًا ثم
اختفى ، ففزعَ منه أصحابُ الفلك ولكن الصيادَ لم يحفل به وكأنه لم
يجده شيئًا ، فسألوا رئيس القوم عن هذا فقال :

كان سليمانُ بن داود عليهما السلام إذا عمل الجنُّ شيئًا وغضبَ عليهم
حبسهم في قِمامٍ نحاسية وختم غِطاءها بخاتمه وألقاها في البحر ، وكثيرًا
ما يخرج الصيادون بشبا كههم قِمامٍ منها ، فإذا كسروا ققما أو أزالوا عنه
الغِطاء خرج منه الجنُّ المحبوسُ على نحو ما رأيتم ، وهو يَعْتَقِدُ أن سليمان
لا يزالُ حيًّا ، فيعلن توبته كما سمعتم .

فقال الخليفة عبد الملك وعلى وجهه سِماَتُ رغبة مُلَحَّة : يودِّي لو رأيت
شيئًا من هذه القِمام ! فقال طالبُ بن سهل : ذلك على أمير المؤمنين هين ،
ومن اليسير أن يأتيك كثير منها وأنت في مَقَرِّ مَلِكِكَ لا تَريم ، فأرسل
إلى أخيك عبد العزيز بن مروان أن يكتب إلى موسى بن نصير بإحضار
ما تطلبُ من تلك البقعة التي فيها القِمام ، فهي متصلةٌ بالأرض التي جعلته
واليا عليها ، فاستراح الخليفة لهذا الرأي وقال : ليس لهذا الأمر غيرُكَ
ياطالب ، فلتسكن أنت رسولي إلى موسى بن نصير ولك ما تشاء من
(٥)

المال ، وسأخلفك في أهلكَ حتى تمود سالماً بفضل الله ، فقال طالب :
ليس أحبَّ إلى نفسي من طاعة أمير المؤمنين .

أمدَّ الخليفةُ طالبَ بن سهل بالمال الكثير وصالحى الأعوان والرجال
وناوله كتابين أما أَحَدُهُما فإلى والى مصرَ يوصيه بطالب بن سهل خيراً ،
وأما الآخر فإلى موسى بن نصير يأمره أن يُحضر بعضاً من القماقم مَهْما
يَبْذُلُ في سبيلها من المال والجهد ، ويُعلنُ أنه لن يقبل في عدم إحضاره
معاذير مَهْما يكن من أمرها .

ولما قرأ موسى كتاب أمير المؤمنين قال : سمعا وطاعة ، وجمع ذوى
الرأى والمشورة من رجال ولايته ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ،
فأجمعوا رأيهم على أن هذا الأمرَ لا يقومُ به إلا الشيخ عبد الصمد
القدوس ، لخبرته بالقفار والبحار ، ومعرفته سكان الأقاليم والأقطار ،
وكثرة ما قاسى من الأسفار ، فبعثَ موسى في طلبه ، فجاءه من فوره ،
وكان شيخاً كبيراً حنكته التجاربُ وصقلته الأيام .

فلما جاءه قال له : إن خليفتنا أمرنا أن نبعثَ إليه بعضاً من قماقم
سليمان بن داود عليهما السلام ، ولا أعرفُ مكانها ، وقد قيلَ لى : إنك
أعلمُ الناس بالأرض ومسا لكها والأقطار وما فيها ، وإنك رجلٌ مجربٌ
حكيم ، فهل لك رغبةٌ في قضاء ما طلب منا أمير المؤمنين ؟

فقال الشيخ : ولكنَّ الطريقَ وعرةٌ مخوفةٌ بالخاوف ، والشقةُ
بعيدةٌ وأهوالها ثقيلةٌ ، وأنت رجلٌ مجاهدٌ فاتح ، وأعداؤك من الأمم

الأخرى على مقربة من بلادك وهم ينتهزون الفرص لتزوها .

فقال موسى : كم من الزمن تحتاج هذه الرحلة ؟ فقال : سنتين وشهراً ذهاباً ومثلها جئته ، وإذا كان لامفرّ من الرحيل فليكن أن تستخلف في البلاد من يُغني غنائك ويكون قذّي في عين أعدائك .

فقال : سأستخلف ابني هارون فيها ، وهو رجلٌ كما تعرفُ شديدُ البأس جليل القدر واسع الحيلة ذو عزمٍ وفطنة .

فقال : يسّر الله لنا الأمر ، ووقى البلاد في غيبتنا كل مكروهٍ وضُرٍّ وربما لبثنا فيها من الزمن أقل مما سمعتَ وعرفتَ ، ولنعتمد على الله مُخلصين له أعمالنا ، راجينَ منه أن يُهيئ لنا من أمرنا كل يُسرٍ وخير .

سار موسى بن نصير ومعه حامية من جنده ومن رغب في الرحيل معه من صحبه ، والشيخُ عبد الصمدُ يجتاز بهم ربواتٍ وسهولاً ، وغاباتٍ موحشةٍ ترتعدُ منها القرائصُ رُعبا ، حتى كانوا أمام قصر مُنيفٍ واسع الرقعة ، يحسبه القادمُ إليه سورا عالياً من الحجرات يحوى بداخله بلداً ، وبابه من السعة والعظمة بحيث يتلاءم وهذه البنية الضخمة الممتدة ، يصعد إليه الداخلُ في سلمٍ من الرخام الأبيض المصقول المُصَفّى ، وكان مفتوحاً على مصراعيه ، وقد وضعتُ به عليه لوحةً رخاميةً كبيرة بها كتابةٌ باللغة اليونانية وكان الشيخ عبد الصمد يحذقها ويعرفها ، فأمره موسى أن يقرأ ما فيها فقرأ .

هؤلاء قومٌ يندُبُ مصيرهم مُلكاً كبيراً نزع من أيديهم ، ونعياً

واسعاً فارقه رغم أنوفهم ، فلا ترى كلاً منهم إلا حبيس قبر وضجيع حجر ، فتأثر موسى وقال : لا إله إلا الله الحى القيوم بديع السموات والأرض ، ودخلوا إلى ردهةٍ فسيحةٍ فرشت أرضها بالرخام الملون ، وحُلى سقفها بنقوش الذهب والفضة ، وعلى جانبيها صور وتماثيل بديعة الصنع رائعة الجمال ، تنتهى إلى باب آخر به لوحة مكتوب فيها :

كم من معشرٍ أقبلت عليهم الدنيا فتمتعوا بها قليلاً أو كثيراً ، ثم كان مصيرهم إلى الفناء .

فبكى موسى متأثراً وقال : لا إله إلا الله ، ما خلقنا عبداً ، وإنما خلقنا لأمر عظيم ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم نفذوا من هذا الباب إلى فناء واسع تطل عليه أبنية القصر الذى لم يروا فيه أحدا ولم يسمعوا همساً ، ووجدوا فى وسط الفناء قبةً ضخمةً عالية ، ومن حولها قبورٌ يُجاوزُ عددها أربعمائة ، وهى غارقةٌ فى سكون عميقٍ يبعثُ فى النفس الرهبة وكان من بينها قبرٌ كبير من الرخام كتب عليه :

ما أكثر ما شهدت من كائنات ! وما أكثر ما لهوتُ ولعبتُ واستمتعت بالغايات ! وما أكثر ما أمرتُ ونهيتُ وبنيتُ من حصون مانعات ! غرثنى الدنيا وزينتها فغفأتُ عما هوأت ، فحاسب أيها الفتى نفسك قبل أن تشرب كأس المات ، فعما قليل يُهال عليك الثرى وأنت فى حسرة على ما ضاع من عمرك وفات .

فبكى موسى ومن معه ، ثم دنّوا من العتبة فوجدوا لها ثمانية أبواب

مصاريحها من خشب الصندل المرصع بالذهب والفضة والجواهر الكريمة
وقد كتب على باب منها : طالما جئتُ المال مغتبطاً ، وضننت به على ذوى
الحاجة من الأقربين والأبعدين ، وقد خلفته من بعدى ، لا تكرماً
ولا تفضلاً منى ، ولكنه حكم القضاء الجارى ، وما دفع عني الموت كثرة
المال ولا قوة الجنود والرجال ، وسألتُ عن هذا المال يوم الحساب ،
فاحذر أن تخذلك الدنيا وتلهيك عن الآخرة .

ودخلوا من هذا الباب على قبر مُستطيل كبير عليه لوحٌ من الحديد
المموه بالصينى وقد كتب عليه :

باسم الله الأحد الصمد الذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ ولم يكن له كفواً أحد .
أما بعد فاعتبر يا من زرت هذا المكان ، بما تراه من طوارق الحداث ، واعلم
بأن الدنيا بالبلاء مخوفة ، وبالقدر معروفة ، ترى أهلها بسهامها وتفنيهم
بحمامها ، وما هى إلا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده
شيئاً ، فقد ملكت فيها أربعة آلاف حصان ، وتزوجت ألف بنت من
بنات الملوك الأتقار ، ورزقت بألف ولدٍ كأنهم الأسود شجاعة وقوة
ويهرت فى الدنيا ألف سنة ، وجمعت من الأموال ما إن مفاتيح خزائنه
لتنوء بالعصبة أولى القوة ، ولبننا فى هذا القصر مطمئين منعمين ، حتى
أخذتنا صيحة الحق ، فكان يموت منا اثنان كل يوم ، فلما رأيت الفناء قد
دبَّ ديبه فينا ، كتبتُ هذا ليكون موعظة لمن يزورنا ، وقد جمعت
جنودى وسألتهم أن يدفعوا عني الموت بأسلحتهم فما استطاعوا وما فعلوا ،

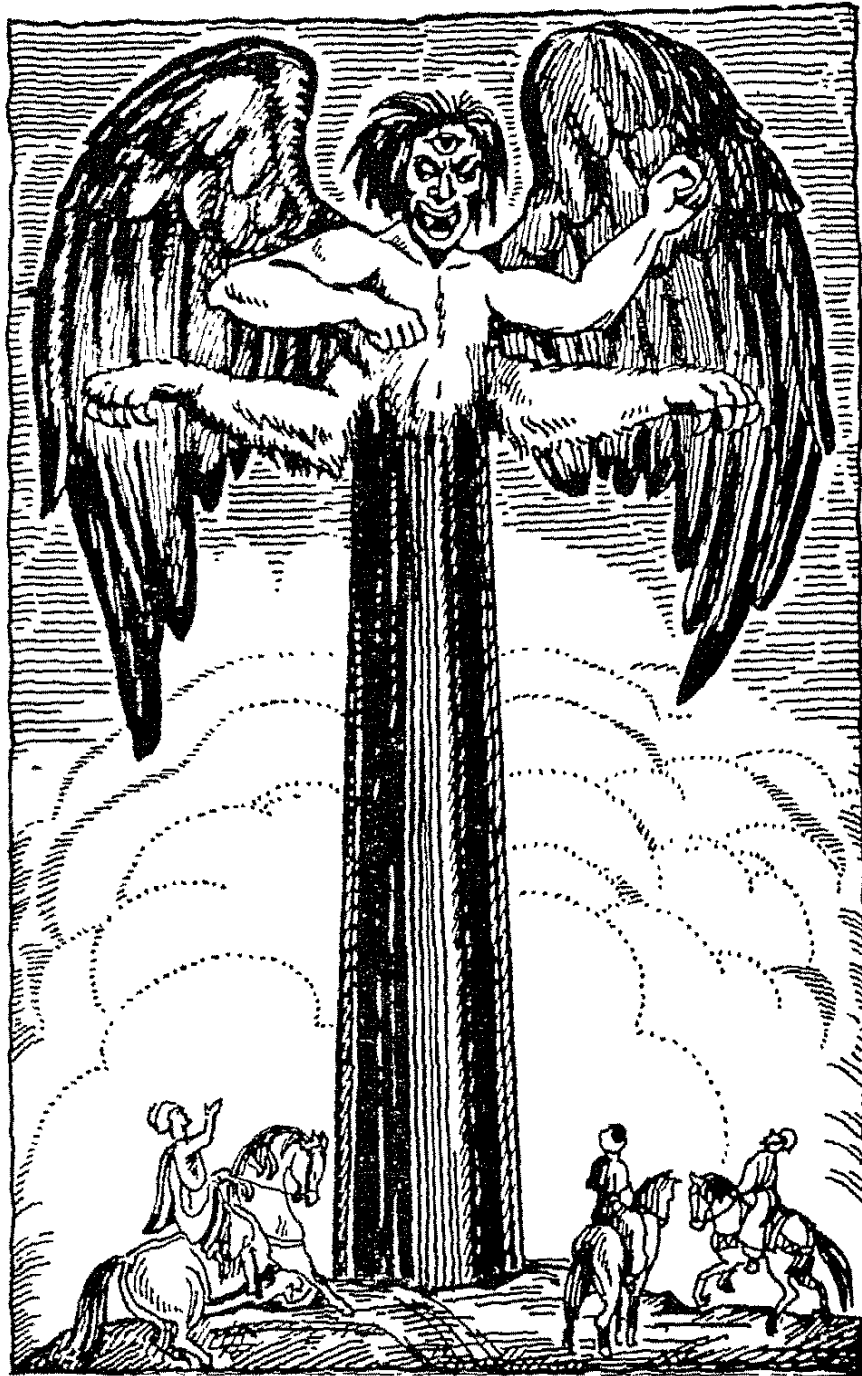
فسألتهم أن ينقذوني من الموت بما أملكه من الأموال ، أو يؤجلوا آخرتي يوما واحدا فما أغنى عني ما أملكه شيئا ، فامتثلت لحكم القضاء . وسكنت هذا الضريح ، وأنا كُوشُ بن شَداد بن عادٍ الأكبر ، بعد أن حكمت البلاد ، وقهرت بجيوشي العباد ، فاحرص على أن تنفق عُمرَكَ في صالح الأعمال ، فهي التي تؤنسك في وحدتك ، وتنجيك يوم مسألتك .

فبكى موسى ومن معه متأثرين ، وأخذوا يطوفون في نواحي القصر ، فعثروا على سفرة ذات أربع قوائم مكتوب عليها : أكل على هذه السفرة ألف ملك أعور وألف ملك سليم العيينين ، وقد سكنوا جميعهم القبور .

وقد أمر موسى بكتابة كل هذا وخرج من القصر هو وجماعته ولم يأخذوا معهم إلا تلك السفرة ، وأخذوا يسرون حيث يدلهم الشيخ عبد الصمد ، حتى أتوا رابية عالية وفوقها فارسٌ من نحاس أصفر ، لرحبه سنانٌ عريض براق كتب عليه :

أيها السائر ، إن كنت لا تعرف الطريق إلى مدينة النحاس فافرك كَف هذا الفارس فإنه يدور ثم يقف ، فإذا ما وقف فاسلك الطريق الذي يولى وجهه شطرها إلى مدينة النحاس وأنت آمن .

ففرك موسى كفه ، ودار الفارس ثم وقف ، فسلكوا الطريق التي ولى وجهه شطرها ، وما زالوا سائرين حتى وجدوا عموداً من حجر أسود ، به شخص غاص في الأرض إلى إبطيه ، وله جناحان عظيمان ، وأيد أربعة ، اثنتان كأيدي بني آدم ، واثنتان كأيدي الأسد ، وفي رأسه



شعر كأذ ناب الخيل ، وعيناه تتوقدان كاللهب ، وله عينٌ ثالثةٌ في
جبهته كالجمرة ، وهو أسودُّ اللون ، وسمعوه ينادى :

سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ الَّذِي حَكَّمَ عَلَىَّ بِهَذَا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ،
فَلَمَّا سَمِعُوهُ فَرَوْا مَبْعَدِينَ هَارِبِينَ خَائِفِينَ .

وسأل موسى الشيخ عبد الصمد عنه فقال : لا أعرف عنه شيئاً ،
فأمره أن يذهبَ إليه ويكشف لهم عن سرِّه فقال :
إذا كان قد أزعجنا أجمعين فكيف أجروّ وحدي أن أذهب إليه وأنا
أجهلُ أمره ؟ .

فقال موسى : لا أرى سبباً للخوف ، فهو مكفوفٌ عنا بما هو فيه ،
ولنذهب جميعاً إليه معك ، فذهبوا ودنا منه الشيخ عبد الصمد سائلاً :
أيها الشخص ، من أنت ؟ وما شأنك ؟ .

فقال : إني عفريتٌ من الجنِّ يسمى داهش بن الأعمش ، محبوسٌ في
مكاني هذا على نحو ما ترى بقدره الله تعالى ، وإنَّ لي حديثاً عجيباً : وذلك
أنه كان لولد من أولاد إبليس صنم من العقيق وُكِّلَ إلى أمره ، وكان
عاكفاً على عبادة هذا الصنم مَلِكٌ من مُلوك البحر عظم خطره وكثُر
جنده ، وفي طاعته أَلْفُ أَلْفٍ من الجن ، وكان هؤلاء يطيعونني
ويأتمرون بأمرى ، وقد عصوا سليمان بن داود عليهما السلام وتمردوا ،
وكنت أدخل جوف الصنم فأمرهم وأنهاهم ، وكان لهذا الملك بنت فاتنة
الجمال لا تني عن السجود لهذا الصنم وعبادته فذكرت أمرها إلى سليمان

عليه السلام ، فأرسل إلى أبيها أن يزوجه منها ، وأن يكسر الصنم الذي يعبدونه من دون الله ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن سليمان نبي الله ، وقال : فإن فعاتم كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وإن أبيتُم جئتكم بجنود لا قبل لكم بها ولا طاقة لكم بلقائها .

فاستكبر الملك وجمع وزراءه وعرض عليهم رسالة سليمان وقال : انظروا بماذا تشيرون ؟ فقالوا : لن يستطيع سليمان أن يصيبك بمكرهه ، فأنت في وسط البحر الأعظم ومعك الألوف من مردة الجان ، ومَعونة الصنم الذي تعبده ، ومع هذا فمن المستحسن أن تستشير الصنم في أمر سليمان هذا ، ولتنظر ماذا يقول ، فقرب الملك إلى صنمه القرايين وذهب إليه يستشيره ، فقال :

يا ربى إن سليمان يروم كسرك ، والانصراف عن عبادتك ، وينذرني إن لم أستجب له هلاكاً ونكالا ، فرنى بما تشاء ، قال العفريت : وكنت لجهلى وقلة مبالأتى بسليمان وجنوده قد سبقت الملك إلى الصنم ودخلت جوفه ، فلما سأله الملك أجبتة : لا يهمنى أمر سليمان فى قليل أو كثير ، وإن يُردّ حربى فسأصبُّ عليه الويل والثبور .

فاشتد عزمُ الملك وأصرَّ على أن يقاتل سليمان عليه السلام . وأذى رسول سليمان وضربه ، وأرجعه إليه يحمل تهديده ووعيده .

غضب سليمان غضبة كريمة ، وامتنطى البساط هو وجنوده من الجن

والإنس والوحش والطير والهوام ونزل بأرض الملك في جزيرته ،
وأرسل إليه يقول :

لقد أتيت إليك ، فراجع عقلك ، وتدبر مصيرك ، فإن آمنتم بالله
ونبيهه ، وكسرت صنمك ، وزوجتني ابنتك لأنقذها بالإيمان بالله من
عذاب الله — سلمت وسلمت جنودك ، وإلا فليست حصونك
بمانعتك مني ، فقال لرسول سليمان : ارجع إلى من أرسلك وبلغه الأسبيل
إلى ما يطلب ، وإني خارج إليه فملاقية . وجمع الملك جموعه ونفر إليه
في ألوف من الجن ومردة الشياطين .

وأما سليمان فإنه بعد أن بلغه رسوله إجابة الملك نظم جنوده ،
وقسم الوحوش قسمين عن يمين وشمال ، وأمرها أن تفترس خيولهم ومن
تلقاه منهم ، وأمر الطير أن تفقأ عيونهم بمناقيرها ، وتضرب وجوههم
بأجنحتها ، وجلس هو على سرير من المرمر مرصع بالذهب والجوهر ،
وجعل وزيره آصف بن برخيا عن يمينه ووزيره الدمر ياط عن يساره .
وحشد الجيوش أمامه .

قال العفريت : وزحف علينا زحفة قامت على أثرها حرب طاحنة
تنشق لها المرائر وبرز الدمر ياط فانفردت بقتاله حتى أعيان وأعيته ثم
ضعفت أمامه ، وشرب ملكنا كأس الهزيمة وكنا لسليمان غنيمة ، ولم
أستطع البقاء في ميدان القتال فطرت بين يدي الدمر ياط ولكنّه تبعني
حتى أدركني فأسرني وحبسني في هذا العمود كما ترى .

(٢)

ولما انتهى الجنى من قصة حبسه في العمود ، سأله الأمير موسى وجماعته ، عن الطريق إلى مدينة النحاس ، فأشار إليها ، فسلكوها حتى نزلوا أمام سور المدينة ، فوجدوه متيناً ضخماً ، كأنه حديد مصبوب ، أو جبل ممدود ، وليس فيه أثر لباب يوصل إلى المدينة ، فقال الأمير موسى لطالب بن سهل وزيره : لا بُدَّ أن ندخل مدينة النحاس ، فعليك أن تحتال لدخولها ، وتهيئ سبيلاً إلى الاغترار فيها ، فقال طالب : يسر الله أمر الأمير ، وشرح صدره ، أمهلني يومين أو ثلاثة ، أنظر فيها وجه الحيلة ، وستجدها إن شاء الله لديك حاضرة ، فلم يطق الأمير موسى أن يصبر هذه المدة ، وأمر غلاماً له ، معروفاً بالشجاعة والقوة ، أن يركب جملة ، ويطوف حول سور المدينة ، لعله يجد آثار باب لها ، أو يعثر على قصر بجوارها ، يكون له صلة بها

أرعى الغلام الزمام لجملة ، وجعل يطوف حول السور يومين وليلتين ، حتى أشرف على القوم ثالث يوم ، وقال : أعز الله الأمير ، أسهل مكان تستطيع الوصول منه إلى هذه المدينة ، أو معرفة شيء عنها ، ذلك المكان الذي أتم فيه الآن .

وكانت المدينة جامعة في وادٍ ، أمام جبل ممتد في السماء ، فصعد فيه الأمير ، وصحبه طالب بن سهل ، والشيخ عبد الصمد ، محاولين الاطلاع

عليها ، من موضع بالجبل قريب منها ، مشرفٍ عليها ، فرأوا مدينةً غارقةً في عظمة صامتة ، بادية في قصورها الفخمة العالية ، وقبابها المبعثرة الزاهية ، وحدائقها الزاهرة ، وأنهارها الجارية ، وأشجارها العالية الناضرة ، وأزهارها اليانعة ، وثمارها الشهية الناضجة ، ولكنها خالية من السكان والحركة ، فلا تسمعُ فيها إلا أصوات الطيور المتجاوبة ، كأنها تندبُ أهلها ، وتنعى من بناها ، فدهش الأمير موسى لهذه الحال العجيبة ، وأسيفَ على خلوّ المدينة من الإنسان ، وجعلَ يتنقلُ يبصره فيها هنا وهناك ويقول :

سبحانَ الحيِّ القيوم ، بديع السموات والأرض ، خالق الخلق ، مدبر الأمر ، له الملك وإليه المصير ، ثم وقع بصره على سبعة ألواح من الرخام الأبيض على كلِّ منها كتابة واضحة ، فأمر الشيخ عبد الصمد أن يقرأها ، فوجدها سطرت بآيات بينات ، من عظة وذكري لأولى الألباب ، ووجدَ اللوح الأول مكتوباً فيه :

« يا ابن آدم ، ما أعظم غفلتك عما أنت إليه صائر ! لقد أهلك التكابر ، حتى زرت المقابر ، أما علمت أن المنية جاعمة لك تترصد ، وأنها مدركتك ولو كنت في بُرجٍ مشيد ، فانظر ما قدمت يدك قبل أن تطويكَ قبرك ومثواك .

فوجَلَ قلبُ الأمير موسى ، لما سمع من تلك الموعظة ، وقال : والله

إن المرء لا ينفعه إلا زهده في الدنيا ، وعدمُ الاعتِرارِ بها ، وأمر أن تكتب هذه الموعظةُ في قرطاسٍ يحفظ عنده .

وكان قد كتب على اللوح الثاني :

يا ابن آدم ، ما غرَّكَ ربُّكَ الكريم الذي خلقَكَ فسواكَ ، وما أهلكَ عن أَجَلٍ يدُؤُ منك ولا ينساكَ ؟ ! أما علمتَ أن الحياةَ الدنيا لهوٌ ولعبٌ وما لأحدٍ فيها من قرار ؟ فاذكروا من عمروا الأرضَ وملكوها ، ثم دعاهم داعيُ الفناءِ فلبَّوه ، وبلغوا من الأرضِ منزلَ وحدتهم ، ومحطَّ حُفرتهم ، وما أغنى عنهم أموالهم ، وهلكَ عنهم سُلطانهم .

فبكى الأمير موسى بكاءً مرًّا وأمر أن يكتب هذا أيضاً ، وقال والله ما خلق الإنسان إلا لأمرٍ عظيمٍ قد يكونُ الناسُ عنه في غفلةٍ .

أما اللوحُ الثالث فقد كان مكتوباً فيه :

يا ابن آدم ، غرَّتكَ الدنيا فاشتريتها بآخرتك ، وخدعَكَ الهوى فأنساكَ ذكرَ ربِّكَ ، ألم يجعلْ لك عينين ، ولساناً وشفقتين ؟ فكيف تنكرُ الالهَ ، وتكفرُ بنعمائه ، وهو المنعمُ الوهاب ، وإليه المرجع والمآب ؟ ! !

فزاد بكاء الأمير ، وعظمتُ مخافته ، وأمر أن يكتب ويُحفظ .

وقرأ الشيخ عبد الصمد ما باللوح الرابع فإذا هو :

يا ابن آدم ، إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، وكثيراً ما أمهلك

وَأَمَلَى لَكَ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْإِحْهَالِ إِلَّا النِّكَالُ ، تَخَذْ مِنْ صَحَّتِكَ لِمَرْضِكَ ،
وَمِنْ غِنَاكَ لِفَقْرِكَ ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ ، وَاحْذَرِ أَنْ تَرْكُنَ إِلَى الدُّنْيَا
فَلَيْسَ لَهَا ثُبُوتٌ ، وَمَاهِي إِلَّا كَيْبِتَ الْعَنْكَبُوتُ .

فَعَظُمَتْ خَشْيَةُ الْأَمِيرِ وَاشْتَدَّ وَجْلُهُ ، وَأَمَرَ بِكِتَابَةِ هَذَا وَحْفَظَهُ ، ثُمَّ
نَزَلَ هُوَ وَصَاحِبَاهُ إِلَى مُعَسَّكَرِهِمْ ، وَهَنَّاكَ جَمْعَ الْخَوَاصِّ مِنْ رِجَالِهِ ،
وَجَعَلُوا يَبْحَثُونَ عَنْ حِيلَةٍ تَمَكِّنُهُمْ مِنْ دُخُولِ الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ الْأَمِيرُ لَهُمْ :
إِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا يَثْقُبُ أَحْلَاكَ ظُلُمَةٍ ، فَاهْتَدُوا بِهِ لِلْعُثُورِ عَلَى حِيلَةٍ ، نَدْخُلُ
بِهَا تِلْكَ الْمَدِينَةَ ، لَنَرَى عَجَائِبَهَا وَغَرَائِبَهَا ، وَلَعَلَّنَا نَجِدُ فِيهَا مَا نَتَقَرَّبُ بِهِ
إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ طَالِبُ بْنُ سَهْلٍ وَزِيرُهُ :

أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَةَ الْأَمِيرِ ، نَصْنَعُ سُلَامَانَصَعْدُ فِيهِ إِلَى ذِرْوَةِ السُّورِ ، وَعَسَى
أَنْ نَجِدَ بَابًا لِلْمَدِينَةِ مِنْ دَاخِلِهِ ، فَقَالَ الْأَمِيرُ : نَعَمْ الرَّأْيُ ، وَقَدْ خَطَرَ مِنْ قَبْلُ
بِيَالِي وَأَعْجَبَنِي ، ثُمَّ أَمَرَ النُّجَّارِينَ وَالْحَدَّادِينَ أَنْ يَصْنَعُوا سُلَامًا مَتِينًا فِي أَقْصَرِ
مُدَّةٍ ، وَبَعْدَ شَهْرٍ أَتَمُّوا صُنْعَهُ ، وَأَسْنَدُوهُ إِلَى السُّورِ ، فَأَصْبَحَ فِي اسْتِطَاعَةٍ
أَيُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَصْعَدَ فِيهِ إِلَى قِمَّةِ السُّورِ ، وَيَمْشِيَ فَوْقَهُ حَيْثُ يُشَاءُ .

فَرِحَ الْأَمِيرُ بِذَلِكَ ، وَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ مَنْ مِنْكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَنْزِلَ الْمَدِينَةَ ؟
وَيَحْتَالُ فِي فَتْحِ بَابِ نَلْجَةِ إِلَيْهَا ، لَنَعْرِفَ سِرَّهَا ، وَغَرِيبَ شَأْنِهَا ؟ فَتَقْدُمُ
أَحَدُهُمْ وَأَخْذَ عَلَى مَاتِقِهِ ، أَنْ يَكُونَ فَتْحُ بَابِ الْمَدِينَةِ عَلَى يَدِهِ ، وَمَا لَبِثَ
أَنْ وَقَفَ عَلَى قِمَّةِ السُّورِ حَتَّى رَأَوْهُ يَحْدُقُ بَيْصَرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَيُصْفِقُ
بِكَفْيِهِ قَائِلًا :

أنت مليح ، ثم ألقى بنفسه داخل السور ، فأيقن الأمير أنه نزل إلى أرض المدينة جثة هامدة ، ولم يتخلف عن هذا اليقين منهم أحد ، وقال الأمير : لئن كان هذا مصير كل رجل يصعد فلا ريب أننا هالكون ، وسيلتقمنا الموت واحدا في إثر واحد ، حتى لم يبق منا أحد ، ولهذا يحسن أن ننجو بأنفسنا ، ونرحل عن هذه المدينة ، فلا حاجة لنا بها ، ما دمتنا عاجزين عن دخولها ، فقال بمض رحاله في حماسة بادية :

لعل غيره أثبت جنانا ، وأقدر على تحقيق رغبتنا ، فقال : لا بأس أن نجرب غيره فقد يكون الفتح على يده ، وتقدم اثنا عشر رجلا ، أحدهم بعد الآخر ، وكان مصيرهم مصير الرجل الأول ، الذي حلق وصدق ونزل ، فتحمس الشيخ عبد الصمد وقال :

ليس لهذا الأمر أحد غيري ، ولا يستوى رابط الجأش ومن قلبه هواء ، ولا يستوى المجرب وغير المجرب ، فقال الأمير : ولكني لا أرضى بصعودك ، لأنك دأيلنا ، وإن مت هلكنا أجمعين ، فقال الشيخ : لا تخف أيها الأمير ، فإن تقى بنفسى ، واعتمادى على ربى ، كفيلا بتحقيق مآربى ، وحمايتى من كل خطر ، ووافق هذا القول رغبة في نفوس الجماعة ، وبخاصة فقد اشتدت رغبتهم في دخول المدينة ، ليقفوا على مصير أصحابهم الذين هؤوا إليها .

وقام الشيخ وهو يتلو فاتحة الكتاب ، وغيرها من آيات القرآن الكريم ، حتى كان فوق سور المدينة ، وصحبه شاخصون إليه ، ولما

رأوه قد حدّق ببصره، وصفّق بيديه . فزعوا وصاحوا : لا تلقِ بنفسك ، لا تلقِ بنفسك ، ولكنه ضحك في صوتٍ مرتفع ، وجلس على السور يتلو ما تيسّر من آي الذكر الحكيم ، ثم قام وصاح رافعاً صوته ، لا خوف علينا وعليكم ، فقد صرف الله كيد الشيطانِ عنى وعنكم ، بفضلِ اعتمادى عليه ، وما تلوت من آياتِ بينات ، فقال الأمير : وماذا رأيت يا شيخ عبد الصمد ؟ فقال :

رأيتُ عشر جوار ، كأنهن الأقارب ، يشرن إلى بأيديهن أن أقبل إلينا ، وخيلَ إلى أن تحتى بحراً ، وهمتُ بإلقاء نفسى ، كما فعل أصحابنا السابقون ، ولكنى رأيتُ الجوارى ميتات ، فأحججتُ عن إلقاء نفسى ، وتلوت شيئاً من كتاب الله تعالى ، فصرف عنى كيدهنّ وسحرهن ، ولا بُدّ أن يكون هذا سحرَ أهل المدينة ، فعلوه لحمايتها من كل طارق ، وليصرفوا عنها كل راغبٍ فى الوصول إليها ، وهؤلاء أصحابنا موتى .

ثم مشى الشيخُ على السورِ حتى وصلَ إلى برجين من نحاس ، لهما بابان من ذهب ، ولكن لا قفلَ فيهما ، ولا أثرَ عليهما يدلّ على فتحهما ، فوقف الشيخُ أمامهما طويلاً ، مفكراً متأملاً ، فرأى وسط الباب صورة فارسٍ من نحاس ، له كفّ ممدودة ، كأنه يشيرُ بها إلى شيء ، ورأى كتابةً فقرأها ، فإذا هى : افرك المسمار الذى فى سرقة الفارس اثنتى عشرة فركة ، يفتح لك باب البرج ، ولما فركه الشيخُ انفتح الباب ، وكان لفتحه أزيزٌ كأنه الرعد ، فدخلَ منه الشيخ عبد الصمد — وكان عالماً بجميع

اللغات — إلى دهليز طويل ، يحركُ سكوته الرعبَ في نفس سالكه ،
وينتهى إلى سلمٍ ذي درجاتٍ معدودات ، فنزل منه إلى مكانٍ به أرائكٌ
جميلة ، عليها أشخاصٌ موتى ، وفوق رؤوسهم تروسٌ وسيوفٌ وقسيٌ
وسهام ، ووجد به بابَ المدينة ، ومن خلفه عمودٌ حديدى ، ومتاريس
خشبية متينة ، وأقفالٌ رفيقة ، وآلاتٌ محكمة ، فظنَّ الشيخ أن مفتاح
الباب عند هؤلاء الأشخاصِ الموتى ، وكان من بينهم رجلٌ يبدو عليه أنه
أكبرهم سناً ، وقد جلسَ على أريكةٍ عالية ، فقال في نفسه : لعل هذا
الرجلُ بوابُ المدينة ، ومعه مفتاحُها ، وهؤلاء الآخرون أعوانه ، وتحت
إمرته وسلطانِه ، فدنا منه ورفع ثيابه ، فوجد المفاتيحَ معلقةً في وسطه ،
ففرحَ فرحاً عظيماً ، وأخذ المفاتيحَ ، وذهبَ إلى البابِ ففتحَ أقفالَه ، وأزال
المتاريسَ وما خلفه من الآلات ، وجذبَ البابَ إليه جذبةً قويةً ، فانفتحَ
وأطلَّ الشيخُ على صحبه ، فكبرَ وكبروا معه ، وكان فرحُهم عظيماً ، لإنجاءِ
الشيخ وسلامته ، وفتحَ بابَ المدينة وهُموا بالدخولِ جميعهم ، ولكنَّ
الأميرَ موسى نادى فيهم :

يا قوم ، لا نأمنُ على أنفسنا إذا دخلنا جميعنا دفعةً واحدةً ، ولكنَّ
من الحزمِ أن يدخلَ نصفُنا ، وينتظرَ النصفُ الآخر .

(٣)

ودخل الأمير موسى ومعه نصف جماعته ، يحملون آلات الحرب ، فوجدوا أصحابهم ميتين فدفنوهم ، ووجدوا البوابين والخدم والحجاب موتى راقدين ؛ على فرش من حرير ثمين ، ثم ساروا نحو بنية ضخمة ، عالية ممتدة ، ذات أبواب فسيحة عديدة ، فدخلوها فإذا هي سوق المدينة ، مفتحة الدكاكين ، معلقة الموازين ، مصفوفة البضائع ، لا ينقصها إلا حركة البيع والشراء ، فهذه سوق الخز ، جمعت كثيراً من ألوان الديباج المنسوج بالذهب والفضة ، وأصحابها موتى رقوداً على أنطاع الأديم ، يكادون لسلامة أجسامهم ينطقون ، وهذه سوق الجواهر واللؤلؤ والياقوت . كأنها من البريق الوضاء عيون تنظر إلى أصحابها الموتى من تحتها ، وهذه سوق الصيارفة الموتى على فرش من الحرير والإبريسم ، توج دكاكينهم بالذهب والفضة ، وهذه سوق العطارين تملأ الجو بعبير المسك والعطر ، والند والعنبر ، وغيرها من خلاصة الأزهار الذكية ، وكأنها تنذب بأنفاسها تجارها الرقود في غير حياة .

وخرجوا من سوق المدينة ، فرأوا بالقرب منها قصرًا منيفًا ، يعتز بفخامته وضخامته ، فذهبوا إليه ، فوجدوا له باباً زيناً بأشكال زخرفية من المعدن اللامع . ولما دخلوه رأوا في دهاليزه أعلاماً منشورة ، وسيوفاً مجردة ، وقسيًا موترة ، وثروساً ربطت إلى سلاسل من ذهب وفضة ،

وَوُذِّدُوا أَحْكَمَ طَلَاؤُهَا بِالذَّهَبِ الْأَحْمَرِ ، كما وجدوا في تلك الدهاليز أرائك
من العاج المكسوة بالذهب والإبريسم ، وعليها رجالٌ يُحْسِبُهُمُ النَّاظِرُ نِيَامًا
ولكنهم أمواتٌ غيرُ أحياء .

وقف الأميرُ موسى دَهْشًا من عَجِيبِ ما رَأَى ، وبَدِيعِ ما نَظَرَ ، بهذا
القصر الذي أَحْكَمَ بِنَاؤُهُ ، وَأَبْدَعَ تَنْسِيقَهُ ، وَأَحْسَنَ نَقْشَهُ . وزادَهُ عَجِبًا
أن وجدَ هذه العبارةَ قد جُمِّتْ بها صفحاتُ جدرانِهِ : « أَنْظَرُوا وَاعْتَبِرُوا
قَبْلَ أَنْ تَرْحَلُوا ، وما تَقْدُمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ، وكلُّ امرئٍ
بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ، والمرءُ مَجْزِيٌّ بِعَمَلِهِ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ، إِلَّا مَنْ
أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ
أَحْيَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وكلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَلَا يَبْقَى إِلَّا وَجْهُ رَبِّكَ ذِي
الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » .

فزادت الأميرَ هذه العبارةُ إيمانًا وخشيةً ، وأمر أن تُنْقَلَ في قرطاسٍ
لَهُ ، ثم وجدوا في هذا القصر أربعةَ مجالسَ ، فسيحةُ الجَنَباتِ ، ذاتُ
قِوَامٍ مَرْفُوعَةٍ عَالِيَةٍ ، وَأَوْضَاعٍ مُتَقَابِلَةٍ ، زُيِّنَتْ بِنُقُوشٍ ذَهَبِيَّةٍ وَفُضِيَّةٍ ،
يَتَوَسَّطُهَا فَسْقِيَّةٌ مِنَ المَرَمَرِ ، ضَرَبَتْ عَلَيْهَا قُبَّةٌ مِنَ الدِّيْبَاجِ ، وَمِنْ خَلْفِهَا
فَسَاقٍ مِنَ رِخَامٍ مُخْتَلَفٍ أَلْوَانُهُ ، وَمِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ أَرْبَعَةٌ ، تَجْرِي إِلَى بَحِيرَةٍ
وَاسِعَةٍ ، يَشْفُ الْمَاءُ عَنْ صَفَاءِ رِخَامِهَا ، فَقَالَ مُوسَى :

هَيَّا بِنَا نَدْخُلُ تِلْكَ الْمَجَالِسَ ، فوجدوا المجلسَ الأولَ مملوءًا فضةً
وذهبًا ، وَلآلِئًا وَجَواهِرَ ، وَغَيْرَهَا مِنْ نَفِيسِ المَعَادِنِ ، وَصَنَادِيقَ مَمْلُوءَةٍ مِنْ

حرير غالٍ مُختلف ألوانه . ووجدوا في المجلس الثاني خزانةً انفرجَ بابها عن كثيرٍ من أنواع السلاح وأدوات القتال؛ من خُوَازِمِ مذهبية ، ودروع سابغاتٍ داودية ، وسيوفٍ هندية ، ورماحٍ خطيئة ، ودبابيسٍ خوارزمية إلى غير ذلك من أدوات الجهاد والكفاح ، والحرب والقتال . وشاهدوا في المجلس الثالث خزائن ذات أقفالٍ مغلقة ، ومن فوقها ستائرٌ مطرزة ، ففتحوها خزانةً منها ، فأوها مملوءة بالسلاح النادر وجوده ، لفرط الجمال في زخرفته ونقشه . ورأوا في خزائن المجلس الرابع كثيراً من أدوات الطعام والشراب ، المصنوعة من الذهب والفضة ، وصافي البلور ، وخالص العقيق ، من قدورٍ وصحافٍ وأكوابٍ وغيرها .

وجعلوا يحملون من كل أولئك ما أعجبهم واستطاعوا حمله ، ثم خرجوا من تلك المجالس إلى بابٍ مصنوعٍ من السَّاجِ المطمِّع بالماج والأبنوس والذهب البراق اللامع ؟ أسدلت عليه ستائرٌ من حريرٍ زينَ بأنواعٍ جميلةٍ من النقش والتطريز ، وبه أقفالٌ من فضة ، تفتحُ بالحيلة من غير مفاتيح ، فتقدم إليها الشيخُ عبد الصمد ، وفتحها بحيلته وبراعته ، ودخلَ القومُ منه إلى دهليزٍ رخاميٍّ جميل ، على جوانبه براقعُ ذاتُ صورٍ بديعة ، من ذهبٍ وفضة ، تحكي صنوفاً من الوحش والطير ، وأعينها من الدرِّ والياقوت ، تستميل إليها من رآها ، وتُلقي في نفسه العجب والدهشة ، ثم ساروا فيه حتى انتهوا إلى قاعةٍ أرضها من رخامٍ صافٍ مصقول ، مُزخرفٍ بالجواهر ، يحسبه الناظر إليه لجة ، ويخشى أن تزلق فيه قدمه ، إذا مشى



فوقه ، فأمر الأمير موسى أن تفرش تلك القاعة ، حتى يمكنهم أن يمشوا فيها ،
 ووجدوا في تلك القاعة الواسعة ، قبةً عظيمة ، فسيحة النواحي ، بنيت
 بحجارةٍ مطليةٍ بالذهب الأحمر ، وفاقت بحُسنها في نظر القوم جميعَ
 ما شاهدوا ، وفي وسط تلك القبة قبةٌ كبيرة أيضاً ، وهي من المرمر ، وفي
 حُيطها شبابيك منقوشة ، رصمت بقضبانٍ من زمرّد ، تُعجزُ نفقاتها
 قدرةَ الملوك ، وفيها خيمةٌ من الديباج ، نصبت على أعمدة من ذهبٍ أحمر ،
 وفيها طيورٌ أرجلها من زمرّدٍ أخضر ، وتحت كلِّ طير شبكةٌ من لؤلؤ
 رطبٍ طرى ، تُجللُ فسقيةً وُضِعَ فوقها سريرٌ مرصعٌ بالدر والجوهر
 والياقوت ، وعلى ذلك السرير جاريةٌ ، كأنها الشمس وضاءةٌ وحُسنًا ،
 عليها ثيابٌ من لؤلؤٍ رطبٍ طرى ، وعلى رأسها تاجٌ من ذهبٍ أحمر ،
 وعصابةٌ من الجوهر ، وفي جِيدها عقدٌ برّاقٌ اللآلئ ، وعلى جَبِينِهَا
 جوهرتان لهما نورٌ ساطع ، كأنه نور الشمس ، وكان يخيلُ إلى القوم أن
 الجارية تنظر إليهم يمينًا وشمالاً ، وكادوا يستيقنون أنها حية ؛ لنظراتها ،
 وحمرة خديها ؟ وسواد شعرها ، ولهذا قال لها الأميرُ موسى :

السلام عليك أيتها الجارية ، ولكن طالب بن سهلٍ قال له : أصلح الله
 شأن الأمير وعافاه ، هذه جاريةٌ ميتة ، فلا تردّ تحية ، ولقد أحكمَ تدبير
 نظراتها ، وذلك بأن نُزِعَتْ عيناها بعد موتها ، ثم أُعيدتا بعد أن وُضِعَ
 تحتها قليلٌ من الزئبق ، فهما تحتلجان وتتحركان ، ومن أجل ذلك يخيل
 إلى الناظر إليها أنها حية ، وليس فيها شيءٌ من الحياة ، فقال الأميرُ موسى :



سبحان من قهر عباده بالموت .

وكان لسرير الجارية دَرَجٌ ، عليها عبدان ، أحدهما أبيضُ اللون ،
والآخرُ أسودُّه ، ويبدأ أحدهما آلهُ فولاذية ، ويبدأ الآخر سيفٌ مرصعٌ
بالجوهر ، يخطفُ الأبصارَ بريقه ، وبينهما لوحٌ من ذهبٍ كتبَ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان
وجعل له السمعَ والأبصارَ والأفئدة ، أحاط بكلِّ شىءٍ علماً ، وهو القاهر
فوق عباده لا يعجزه شىءٌ فى السموات ولا فى الأرض ، وهو على كلِّ
شىءٍ قدير ، يُدَبِّرُ الأمرُ يُفَصِّلُ الآياتِ لعلمهم بقاء ربهم يؤمنون ، يا ابن
آدم ، ما أشدَّ غفلتك عن حلول أجلك ؟ أين الذين كانوا من لهُو الدنيا
ونعيمها فى غمرة ؟ أين من كانوا يقولون : مَنْ أشدُّ منَّا قوَّةً ؟ لقد
استبدلوا بظهر الأرض بطناً ، وبالسمة ضيقاً ، واتخذوا من التراب أكفاناً
ومن الرفات جيراناً ، وظعنوا بأعمالهم من الحياة الفانية ؟ إلى الحياة الدائمة
الباقية ، نخدوا من حياتكم لماتكم ، واستعدوا للحساب ، يوم لا يغنى المرء
فيه ماله وما كسب ، ولا يجزى والدُّعْن ولد ، ولا مولودٌ هو جازٍ عن
والده شيئاً . يا هذا ، إن كنت لا تعرفنى ، فأنا أعرفك باسمى ونسبى ؛ أنا
نرمزان بنتُ عمالقة الملوك ، ملكتُ ما لم يملكه أحد ، وعدلت فى القضية
وأنصفت بين الرعية ، وأعطيتُ ووهبت ، وواسيتُ وأعنت ، وعشت
طويلاً فى سرورٍ وعيشٍ رغيد ، وأعتقت الجوارى والعبيد ، حتى نزل
بساحتى طارقُ المنايا وحلت بين يديّ الرزايا ؛ وذلك أنه قد تواترت علينا

سبع سنين دأبا ، لم ينزل علينا فيها من السماء ماء ، ولا أنبتت الأرض نباتا فأكلنا ما كان عندنا من القوت ، ثم عطفنا على المواشى والدواب فأكلناها حتى لم يبق شيء منها ، فبعثت بالمال مع الثقات من الرجال ، وطافوا به الأقطار في طلب القوت فلم يجدوا ، ثم عادوا إلينا بالمال بعد طول الغيبة فأظهرنا أموالنا وذخائرنا على نحو ما ترى ، وأغلقتنا مدينتنا ، وأسلمنا إلى الله وجهنا ، وفوضنا إليه أمرنا ، ففتنا جميعا كما ترانا ، تاركين ما عمرنا وما ادّخرنا ، وهذا هو الخبر ، وما بعد العين إلا الأثر ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، واذكروا هادم اللذات ، ومفرّق الجماعات ، وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له لعلكم تفلحون . اعلم أيها الواصل إلى هذا المكان ، ومن رآنا على هذه الحال ، أنه لا ينبغي لامرئ أن يغترّ بالدنيا وزينتها ، فإنها خوّانة غدّارة ، لا تعقب إلا الحسرة والندامة ، فمن سهل الله له دخول مدينتنا فليأخذ من المال ما يقدر على حمله ، ولا يمسّ من فوق جسدي شيئا ، فإنه ستر لمورتي ، وايتق الله ولا يسلب منه شيئا ، وإلا أهلك نفسه ، وقد جعلت ذلك نصيحة مني إليه ، وأمانة بين يديه ، والسلام على من اتبع الهدى .

فأمرت هذه العظاات في نفس الأمير موسى حتى أبكتته وأمر أن تكتب له ، وأن يأخذ صحبه ما يشاءون من الأموال والتحف والجوهر ، فقال طالب بن سهل :

لا ينبغي أن تترك ما على هذه الجارية ، فهو شيء ثمين لا نظير له

وأعظم هدية نتقربُ بها إلى أمير المؤمنين .

فقال الأميرُ : ألم تقرأ ما أوصتُ به الجارية ؟ ! لقد جعلته أمانةً ، وما نحن بأهل غدِرٍ وخيانة .

فقال طالبٌ : وهل نترك ما علينا ، من أجل كلمات كتبتُها ؟ ! وماذا تصنعُ به تلك الجاريةُ وهي مَيِّتة ، ويكفيها ثوبٌ من القطن تستر جسَمَها به ، ونحنُ — معشر الأحياء — أحقُّ بكل ذلك منها ؟ ! ثم تقدم وصعد في سلمٍ حتى كان بين العبدَيْنِ ، وإذا أحدهما يضربه في ظهره ؟ والآخرُ يحزُّ عنقه بسيفه ، فوق مَيِّتاً لا حراكَ به ، فقال الأميرُ موسى : ليس وراء الطمع إلاَّ الخسرانُ والفرع ، لقد كان لك في هذه الأموال ما يكفيك . وبعد أن حملوا ما شاءوا من الأموال والجواهر ، أمرهم أن يغلقوا باب المدينة كما كان ، ثم ارتحلوا وساروا على الساحل ، حتى أشرفوا على جبل عال مشرف على البحر ، وفيه مغارات كثيرة ، بها قومٌ من السودان ، يلبسون نطوعاً ، وعلى رؤوسهم برانسٌ من نطُوعٍ أيضاً ، ويتكلمون بلغةٍ لا يعرفها أحدٌ ، فلما رأوا موسى وعسكره فروا إلى مغاراتهم هاربين ، وكان لهم مَلِكٌ يعرف اللغة العربية ، وسأل الأمير موسى الشيخ عبد الصمد حينئذ عن هؤلاء فقال :

إنهم طَلِبةُ أمير المؤمنين ، فخطوا رحالهم ، وضربوا خيامهم ، وما كادوا يستقرون في منازلهم حتى جاءهم ملكُ السودان ، فتلقاهُ الأمير موسى لقاء حميداً ، ثم قال ملكُ السودان : أأنتم من الإنس أم من الجن ؟ فقال الأمير موسى :

نحن من الإنس ، أما أنتم فيظهر لي أنكم من الجن ، لانفرادكم في هذه
 المغارات المنقطعة ، وامظيم خلقكم ، وضخامة أجسامكم ، فقال ملك
 السودان : ونحن إنس من أولاد حام بن نوح عليه السلام ، وأما هذا
 البحر فإنه يُعرف بالكركر ، فقال موسى : أراك الآن تعرف شيئاً ،
 فكيف جاءكم العلم إلى هذا المكان ، وهو منقطع عن العمران ، فقال
 ملك السودان : اعلم أيها الأمير أنه يظهر لنا من البحر شخص له نور
 يضيء مكاننا هذا ، وله صوت يسمعه القريب منا والبعيد ، فينادي :
 يا أولاد حام استحيوا بمن يرى ولا يرى ، وقولوا : لا إله إلا الله محمد
 رسول الله ، وأنا أبو العباس الخضر ، فاستجبنا لندائه ، وآمنا وصدقنا ،
 وكنا من قبل نعبد بعضنا بعضاً ، وقد علمنا كلمات نعبد الله تعالى
 بقولها ، فقال موسى :

وما تلك الكلمات ؟ فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له
 الملك وله الحمد ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير » ونحن لا نعرف
 شيئاً نتقرب به إلى الله غير هذه الكلمات وكل ليلة جمعة نرى على الأرض
 نوراً ، ونسمع صوتاً يقول : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ،
 مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، كلُّ نعمةٍ من فضل الله ، ولا حول
 ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فقال له الأمير موسى :

نحن أصحاب ملك الإسلام ، عبد الملك بن مروان ، بعثنا لنُحضِرَ إليه
 من بحرِكم هذا فواقمَ محبوساً فيها المفاريت من عهد سليمان بن داود عليه

السلام ، فقال ملكُ السودان : مرحباً بكم ، وبملكِ الإسلام ، حاجتُكم مقضية ، فاستريحُوا أتم واطمئنُّوا ، وأمرَ الغواصين أن يحضروا له ما يستطيعون إخراجَه من القماقمِ السُّليمانية ، ثم أحضرَ لهم طعاماً من أنواع السمك ، فأكلوا جميعهم حتى شبُّوا ، وكان الغواصون قد أحضروا اثني عشر قمماً ، ففرح بها موسى وصحبُه ، وتبادلَ الأميرُ موسى وملكُ السودانِ الهدايا ، ثم ارتحلوا مُشيَّعينَ بالحفاوةِ والإجلال ، ومعهم هدية من سمكٍ على صورة إنسان .

وَصَلَ موسى ومن معه إلى بلاد الشام ، ودخلَ على أميرِ المؤمنين ، وحدثه بما رأى ، وما حصلَ لطالبِ بن سهلٍ ، فعجبَ وقال : ليتني كنتُ معكم ، فأفوز بمشاهدة ما شاهدتم ، ثم أخذَ القماقمَ ، وجعلَ يفتَحُها قمماً في إثر قمم ، والعفراتِ يخرجون قائلين : التوبة يا نبيَّ الله ، ولنْ نعودَ إلى مثل ذلك أبداً ، وجعلَ أميرُ المؤمنين للسمكِ الذي على صورة إنسان حياضاً مملوءةً بالماء ، وألقاه فيها ، ولكنه لم يستطع الحياة فيها فمات ، ثم وزعَ أميرُ المؤمنين ما أحضره موسى من الأموالِ والجواهرِ على المسلمين وقد طابَ موسى إلى أمير المؤمنين أن يستخلفَ ابنه مكانه ، ويعفيه من عمله ، حتى يذهبَ إلى القدس ، يعكفُ هناك على عبادة الله ، فلبى رغبته ، وذهبَ موسى إلى القدس وعكفَ على عبادةِ الله فيه حتى مات .

وإلى هنا ينتهي حديثُ مدينة النحاس .



أبو محمد الكسلان

كانَ هرون الرشيدُ جالساً يوماً على عرشِهِ ، ورجالُ الدولة وقوادُ
الجيش يحفُّونَ من حَوَليهِ ، فدخَلَ عليه غُلامٌ من صِغار الخُصَياتِ ، وعلى يديه
تاجٌ من الذهب المرصع بنفيسِ الدر ، وغالى الجواهر ، فتقدَّم الغُلامُ ،
وأدَّى فروضَ الإجلال والاحترام ، وقال سيدتى زبيدة تقرئك السلام
وتقول : إنها أمرتُ بِصُنع هذا التاج ، فجاءَ بديعاً مُعجِباً ، ولكنَّ ينقصُهُ
جوهرةٌ كبيرة ، وقد فتشَتُ فى خزائنها عن الجوهرةِ الكبيرةِ التى
تريدُها فلم تجِدْها ، فأمرتُني أن أحضرَ بالتاج بين يديْ مولاي الخليفة ،
ليأمرَ بإحضار الجوهرةِ الكبيرةِ التى تنشدُها . فقال أحدُ الجالسين : لا توجدُ

هذه الجوهرة إلا في البصرة ، عند رجل يسمى « أبا محمد الكسلان » فأمر الخليفة بإحضاره بين يديه .

وكتب جعفر كبير وزراءه إلى محمد الزيدى والى البصرة ، كتاباً أمره فيه أن يُرسل إلى أمير المؤمنين أبا محمد الكسلان ، وبعت بهذا الكتاب عبداً من عبيد الخليفة يسمى مسرورا

وسافر مسرور من مدينة بغداد إلى مدينة البصرة ، وهناك ناول الوالى محمداً الزيدى ، كتاب جعفر البرمكى ، كبير الوزراء ، فلما قرأه أمر في الحال ثلاثة من جنوده أن يصحبوا مسروراً إلى دار أبي محمد الكسلان ، لإحضاره إليه ، وتبليغه أمر الخليفة .

ولما طرّق مسرور باب دار أبي محمد الكسلان ، خرج إليه غلام من غلمانه ، فقال له : أخبر سيدك أننا رُسِلُ الخليفة ، جئنا في طلبه ليحضر إليه ، تنفيذاً لأمره ، فتلقاهم أبو محمد ، والبشر يترقق في وجهه ، ويتألق في عينيه ، وقال : سمعاً وطاعة ، لأمر الخليفة ، ولكن تفضلوا لتريحوا ظهركم ، حتى أجهز للرحيل معكم ، ثم سار بهم في بهو فسيح زين بستائر من حرير مطرز بالذهب ، إلى أن أجلسهم في حجرة واسعة ، فرشت بالبسط الحريرية ، وصفت فيها مقاعد فاخرة ، وتدلت من سقفها قناديل نحاسية مموهة بالذهب ، ولم يجلسوا غير قليل من الزمن ، حتى وُضع أمامهم سباط ، عليه ما تشتهيه الأنفس من أنواع الطعام ، في أوان مذهبة متألقة ، وبعد أن طعموا جعل أبو محمد يُحييهم ويُسلمهم ، وزادهم إكراماً



وحُظوة ، فأعطى كلاً منهم خمسة آلاف دينار ، وباتوا في داره حتى الصباح ، ثم ذهبوا جميعهم إلى دار والى البصرة ، واستأذنوه في السفر إلى بغداد .

وكان أبو محمد الكسلان قد ركب بغلةً سرَّجها من ذهب ، ومعه بغلةٌ أخرى ، تَحْمِلُ ما شاء من الهدايا ، وَجَدُوا في المسير حتى دخلوا مدينة بغداد وكان مسرورٌ في عَجَبٍ من هذا الغنى العظيم .

دخل أبو محمد على الخليفة خيًّا وعَظَمَ ، فأمره بالجلوسِ فجلسَ في احترام وأدبٍ جَمٍّ ، ثم استأذن الخليفةَ في الكلام فقال : جئتُ أميرَ المؤمنين بهدية صغيرة ، ولكن قبورك إياها تجعلها كبيرة ، فقال الرشيد : قبلنا هديتك وشكرناك . فأمر الكسلانُ بإحضار صندوق من الصناديق التي معه ، ثم فتحه فأخرج منه تفاحاً ، على أشجارٍ من ذهب ، وأوراقها من زُرد ، وثمارها لؤلؤ أبيض ، وياقوت أحمر وأصفر ، ثم أمر بإحضار صندوقٍ آخر ، فأخرج منه خيمةً من ديباج مرصَّع بكريم الجوهر ، على أشكال تمثل طوائف من الحيوان والطير ، فأبدى الخليفةُ بذلك سروره وإعجابه ، ثم قال الكسلان : ما أحضرتُ تلك الهدية خائفاً ولا طامعاً ، ولكنني وجدتُها لا تصلحُ إلا لأمير المؤمنين أعزَّ اللهُ جُنده ، وأيدهُ بنصر من عنده وإن أذنت لي عرضت عليك شيئاً جديداً أقدرُ عليه ، فقال الرشيد : افعلْ ما شئت يا أبا محمد ، فركَّ شفتيه ، وأوماً إلى ستائرِ النوافذ فتحرَّكتْ نحوه ، ثم أشارَ إليها أن ترجعَ إلى مكانها فرجعت ،

ثم نظر إلى الأبواب والنوافذ المفتحة ، فظهرت كأنها مُقفلة ، ثم تَتم كأنه يتكلم ، وإذا بأصوات طيور تُسمع كأنها تجيبه ، ثم نظر نظرة أخرى ، فرجع كل شيء إلى ما كان عليه .

أثار كل أولئك دهشة الرشيد ومن معه ، فقال : كيف أصبحت يا أبا محمد على هذه الحال ، وما عرفتُ عنك إلا أنك كسلان ، وأن أباك كان حلاقاً يخدم في حمام ؟ ! فقال : حديثي عجيب ، إن أذن لي أمير المؤمنين قصصته ، فقال الرشيد : حدث بما تشاء . فقال :

كان أبي حلاقاً ، عاش فقيراً ، ومات فقيراً ، وكنت أكسل مخلوق في الدنيا ، لا أبرح مكاني ، إلى عمل لي أو لغيري ، وكانت أمي تخدم في بيوت الأغنياء وتطعمني وتسقينني .

و ذات يوم جاء ثني أمي في مكاني الذي لا أفارقه ، وفي يديها خمسة دراهم ، وقالت لي : إن التاجر أبا المظفر عزم على رحلة إلى الصين للتجارة ، وهو يحب الفقراء ويعطف عليهم ويساعدهم ، نخذ هذه الدراهم الخمسة ، و اذهب إليه ، واسأله أن يشتري لك بها شيئاً من بلاد الصين ، عسى أن يكون لك فيه ربح يساعدنا على المعيشة ، فقلت لها :

إني هنا قاعد ، ولا أحب أن أذهب إلى أحد ، وما يمنحك أنت أن تذهبي إليه وتقولي له ما تشائين ؟ ! فأقسمت يميناً لم تترك ربيبة في نفسي ، لتكفن عن إطعامي وخدمتي إن لم أطعها ، فقلت : على شرط أن تلبسيني حذائي ، وتقيميني من قعودي ، وأن أتوكأ عليك حتى نصل إلى أبي ج (٧) (٧)

المظفر ، ففرحت وقالت : سأفعلُ ما تشاء ، وسأصحبُك حتى تعودَ إلى مكانِكَ ، ولا تُغضبُ بعودِكَ أمَّك ، فيغضبَ عليك ربُّك ، فسخطُ الرب في سخط الوالدين .

ولما وصلنا إلى أبي المظفر — وكانَ إذ ذاكَ على ساحلِ البحر — سأمتُ عليه ، وسألته أن يأخذَ مني الدراهمَ الخمسة ، ليشتريَ لي بها حاجةً من الصين ، يكونُ لي فيها ربحٌ ينفعُنَا ، فسأل أصحابه عني ، فقالوا : هذا أبو محمد الكسلان ، وما رأيناهُ قد خرجَ من منزله إلا هذه المرَّة ، فأخذَ مني الدراهمَ قائلاً : بِاسْمِ اللَّهِ وعلى بركةِ اللَّهِ ، ثم رجعتُ أنا وأُمِّي إلى داري .

وسافر أبو المظفر وأصحابه إلى الصين ، وهناك باعوا واشتروا ، وربحوا من المال الوفير ما شاء لهم القدر ، ثم ركبوا سفينتهم راجعين ، وبعد ثلاثة أيام من مسيرهم في البحر ، تذكرني أبو المظفر ، فقال لرفقائه : قفوا ، فقالوا : ماذا جرى ؟

فقال : نسيتُ أن أشتريَ شيئاً لأبي محمد الكسلان ، فارجعوا بنا لنشتريَ له شيئاً قد يكونُ له فيه منفعة ، فقالوا :

لقد اقيننا من أهوالِ البحرِ كلَّ نصَبٍ ومشقة ، ثلاثة أيام متوالية ، نخدُ منا أضعاف الدراهم الخمسة ، ولا ترجعُ بنا ثانية ، فنزل على رأيهم ، وجمع لأبي محمد الكسلان مالاً غيرَ قليلٍ منهم ، ثم ساروا بالسفينة حتى رست على جزيرةٍ عامرةٍ بأهلها وسكانها ، فنزلوا فيها ليشتروا شيئاً من

بضائعها ومُتجّاتها، وبينما هم يسرون في الجزيرة، رأى أبو المظفر رجلاً جالساً، وأمامه عددٌ كثيرٌ من القردة، ومن بينها قردٌ متوفٍ الشعر، لا تسكتُ القردةُ عن ضربه وإيذائه، فأشفق عليه أبو المظفر وقال لصاحبه: أتبيّئني هذا القرد؟ فقال: اشتر، فقال: إنّ معي خمسة دراهم لصبي يتيم، فهل ترضى أن تأخذها ثمناً لهذا القرد؟ فقال: رضيت وبورك لكم فيه، ثم أخذوه معهم، وربطوه في مركبهم، واستأنفوا في البحر مسيرهم حتى رست بهم على جزيرةٍ أخرى، يستخرجُ الناسُ عندها من البحر اللؤلؤَ وغيره من الأحجار الكريمة.

وهناك استأجر أبو المظفر ورفقاؤه الغطاسين، فجعلوا يغطسون ويخرجون ما يجذونه في قاع البحر من الجواهر، فلما رأى القردُ ما يصنع الغطاسون حلَّ قيده وغطس مثلهم، فظن أبو المظفر أن القردَ أفلت وغرق وقال: لاحول ولا قوة إلا بالله! لقد فقدنا القردَ الذي اشتريناه بمالِ الغلام الكسلان، ولكنه لم يلبث أن رآه قد خرجَ من البحر، يحملُ كثيراً من الجواهر، وتقدّم بها ووضعها بين يدي أبي المظفر، فعجب وقال: إنّ لهذا القردَ سرّاً عظيماً، ثم ركبوا سفينتهم وجرت بهم حتى أرسوها على جزيرة يقال لها جزيرة الزنوج، وهم قومٌ يأكلون لحوم البشر، وما كادوا يرونهم حتى جاءهم مسرعين، وأحاطوا بهم في البر، وفي البحر على قواربهم الكبيرة، وأوثقوهم بالحبال وساقوهم إلى مليكهم

فأمر بذبح جماعة منهم ، وبات الباكون في غمٍّ وحزنٍ عظيمين ، ومخافةٍ من مصيرهم الذي يتوقعون ، وكان القردُ معهم ، فنهضَ في منتصف الليل ، وحلَّ قيدَ أبي المظفر ، فلما رأى التجارُ أن أبا المظفر أصبحَ حرًّا طليقا ، قالوا له :

لقد قيَّضَ الله لك من نجاك ، وأصبحتُ نجاتنا الآن في استطاعتك ومتناول يديك ، فقال لهم :

لقد جعلَ الله خلاصى على يدِ هذا القرد ، فجعلتُ لصاحبه لقاءً ذلك من مالى ألفَ دينار ، فصاحوا جميعهم قائلين :

وقدْ شَرَوْنا نجاتنا بأموالنا ، ففكَّ قيودنا ، وسرَّحنا من ربَّقنا وعُقِّلنا ، على أن يهبَ كلُّ منا لصاحب هذا القرد ألفَ دينار ، فلما سمعَ القردُ ذلكَ منهم ، قام إليهم وحلَّ قيودهم ، وأخرجهم من ربَّقهم وعُقِّلهم ، ففرُّوا إلى مركبهم ، وأفلحوا سالمين ، ثم طلب منهم أبو المظفر أن يَفُوا بما وعدوا ، فأعطاه كلُّ منهم لصاحب القرد ألفَ دينار ، واجتمع له من هذا مالٌ وفير ، واستمرت بهم السفينةُ سائرة ، حتى وصلوا إلى مدينةِ البصرة ، ورجع كلُّ منهم إلى بيته .

قال أبو محمد الكسلان : وبينما أنا في دارى ، وفي مكانى الذى لا أفارقه دخلتُ على أُمى وقالت :

جاء أبو المظفر ، فاذهبْ إليه ، وسَلِّمْ عليه ، واسألهُ عن الحاجة التى كلفتهُ بها ، فعمسى أن يكون لك فيها نفعٌ عظيم ، فقلت : إن كنتِ قد

نَسِيتِ شَرْطِي فَلَسْتُ بِذَاهِبٍ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : إِنْ طَلَبْتَ مِنِّي أَنْ أَحْمَلَكَ عَلَى رَأْسِي فَإِنِّي رَاضِيَةٌ ، فَتَوَكَّأْتُ عَلَيْهَا ، وَأَنَا مِنَ الْكَسَلِ كَأَنِّي أَهْمُ جَبَلًا ، وَلَمَّا رَأَى أَبُو الْمُظْفَرِ قَالَ :

أَهْلًا بِنِ كَانَتْ دِرَاهِمُهُ سَبِيحًا فِي نَجَاتِي ، وَنَجَاةُ رَفَقَاتِي ، مِنْ مَوْتٍ عَاجِلٍ مَحْتُومٍ ، خُذْ هَذَا الْقَرْدَ ، وَادْهَبْ بِهِ إِلَى بَيْتِكَ حَتَّى أَجِيءَ إِلَيْكَ ، فَاعْتَرَانِي لِذَلِكَ هُمٌّ نَاصِبٌ ، وَحُزْنٌ أَلِيمٌ ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى الْبَيْتِ وَأُمِّي سَاكِنَةٌ لَا تَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ ، لِمَا حَاقَ بِهَا مِنْ حَيْرَةٍ وَدَهْشَةٍ ، فَقَالَتْ لَهَا : أَلَيْسَ الْقَعُودُ خَيْرًا مِنَ الْحَرَكَةِ ؟ لَقَدْ كُنْتُ تَطْعَمِينَ أَبَا مُحَمَّدٍ الْكَسْلَانَ وَحْدَهُ ، فَأَصْبَحْتَ مَكْلَفَةً بِإِطْعَامِهِ وَإِطْعَامِ الْقَرْدِ مَعَهُ ، وَهَذِهِ تِجَارَتُكَ الَّتِي طَمَعْتَ فِي رِبْحِهَا ، فَلَمْ تَجِبْنِي بِكَلِمَةٍ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ تَسْمَعْ مِنِّي قَوْلًا .

وَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي بَيْتِي إِذَا قَبِلَ أَبُو الْمُظْفَرِ وَأَخَذَنِي مَعَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، وَهَنَّاكَ أَمْرَ غُلَامَانِهِ أَنْ يُعْطُونِي الْمَالَ فِي صُنَادِيْقِهِمْ ، وَنَاوَلَنِي مِفْتَاحَهَا وَقَالَ : هَذَا رِبْحُ الدِّرَاهِمِ الْخَمْسَةِ ، ثُمَّ أَمَرَ غُلَامَانَهُ أَنْ يَحْمِلُوا الصَّنَادِيْقَ إِلَى بَيْتِي ، وَبَارَأَتْهَا أُمِّي حَتَّى فَرَحَتْ فَرَحًا عَظِيمًا وَقَالَتْ :

أَلَيْسَتْ الْحَرَكَةُ خَيْرًا مِنَ الْقَعُودِ ؟ ! أَلَمْ أَحْذَرُكَ عَاقِبَةَ الْكَسَلِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَأَنْتِ لَا تَسْمَعُ وَلَا تُطِيعُ ؟ ! انْخَبَلْتُ مِنْهَا ، وَعَرَفْتُ أَنَّ الْكَسْلَ طَرِيقٌ إِلَى الْفَقْرِ ، وَنَسِخَ لَايَةَ الْحَيَاةِ وَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَنْزِعَ عَنِّي لِبَاسَ الْكَسَلِ ، وَأَنْ أَشْتَغَلَ بِالتِّجَارَةِ مِنْ ذَلِكَ الْحَيْنِ .

اسْتَأْجَرْتُ دُكَانًا فِي سُوقِ الْمَدِينَةِ ، وَصَحْبَنِي الْقَرْدَ فِيهَا ، فَهُوَ يَشَارِكُنِي

في الجلوس والأكل ، غير أنه كان يترك الدكان كل يوم من الصباح ثم يأتي ظهرا ، ومعه ألف دينار ، واستمر على ذلك مدة طويلة من الزمن ، حتى جمع لى مالا كثيرا ، اشترى به المزارع والبساتين ، وكثيرا من المنازل والقصور ، والممالك والجوارى ، وأصبحت من أكابر الأغنياء في المدينة ، بل أغناهم وأوفرهم ثراء ، وأوسعهم نعمة وجاهاً ورخاء .

وذات يوم رأيت القرد في الدكان يلتفت عينا وشمالا على غير عادة ، فنظرت إليه ، وكأني أسأله عن ذلك ، فقال :

يا أبا محمد ، فلحقني منه رعب وفزع ؟ فقال : لا تخف ، وسأخبرك عن أمرى ، واستمر قائلا : أنا مارد من الجن ، وقد صحبتك لإصلاح حالك ، وأنت الآن من أكابر الأغنياء ، وأحب أن أشير عليك بأمر فيه كل خير لك ، فقلت : وما هو ؟

فقال : أريد أن أزوجه فتاة كأنها البدر ، وستكون هي سببا في زيادة نعمتك ، وكثرة مالك ، وعظيم راحتك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ فقال :

اذهب إلى سوق العلافين ، واسأل عن دكان الشريف ، فإذا جلست إليه فقل له : إني راغب في زواج ابنتك ، فإن قال : لا أزوجهما إلى رجل لا مال له ولا حسب ، فادفع له ألف دينار ، فإن طلب المزيد ، فأعطه ما يريد .

لَبِستُ أُفْرَ ما عندي من ثياب ، وركبتُ بغلتي وعليها سرج من
ذَهَبٍ ، وَذَهَبْتُ إِلَيْهِ فِي عَشْرَةِ مِنْ عِبِيدِي ، فلما سلمتُ وجلستُ قال :
اعلّ حاجةً جاءت بكَ إلى ؟

فقلت : جاء بي إليك ، رغبتُ في زواج ابنتِكَ .

فقال : لن أزوّجَ ابنتي لرجل لا مالَ له ولا حَسَبَ .

فناولته كيساً فيه ألفُ دينار قائلاً : ذلك حَسَبُ من لا حَسَبَ له .

فأطرق الشريف ثم رفع رأسه قائلاً : إن كنت تريدُ الزواج فأعطني

ثلاثة آلاف دينار أخرى .

فأرسلتُ عبداً أحضرها من بيتي ، ولما أخذها أغلق دكانه ، ودعا

أصحابه ، وذهبنا جميعاً إلى بيته ، وهناك أبرمنا عقدَ الزواج ، واتفقنا على

أن أدخل بها في بيته بعد عشرة أيام ، ثم قفّلتُ راجماً ، وقصصتُ على

القرود جميع ما جرى . ولما دنا موعدُ دخولي بالفتاه قالَ القرود : إذا

كانتَ لي حاجةٌ عندك ، فهل أنا واجدٌ عندك رغبةً في قضائها ؟

فقلت : لا يُحجِمُ عن قضاء حاجةٍ لك إلا لئيمٌ جاحِدٌ ، فقال : وإن

أنت قضيتها فلكَ عندي ما تشاء ، فقلت وما حاجتك ؟ فقال : : في

الحجرة التي تدخلُ فيها يَنتِ الشريفُ خزانةً من الحديد ، وفي بابها

حلقةٌ من نُحاسٍ ، ومفاتيحُها تحت هذه الحلقة ، فإذا فتحت الخزانة

وجدت داخلها صندوقاً من الحديد ، على أركانه الأربعة ، أربعُ رايات

من الطلسم ، ويتوسط الرايات وعاءٌ مملوءٌ بالمال ، وبجانبه سكين ، وفي

وَسَطِ الوعاءِ دِيكَ أَفَرَقُ أَيُّضُ ، وَالَّذِي أُرِيدُهُ مِنْكَ ، أَنْ تَذْبَحَ الدِّيَّكَ
بِهَذِهِ السَّكِينِ ، وَتَقْطَعَ الرِّايَاتِ ، وَتَقْلِبَ الصَّنْدُوقَ ، فَإِذَا انْتَهَيْتَ مِنْ ذَلِكَ
فَاذْهَبْ إِلَى زَوْجِكَ ، وَاسْتَمْتِعْ بِهَا لَيْلَتَكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ
لَا يُسَاوِي شَيْئًا صَغِيرًا مِنْ مَعْرُوفِكَ ، وَسَأَنْفِذُهُ كَمَا أَرَدْتُ .

وَفِي اللَّيْلَةِ الْمَوْعُودَةِ كُنْتُ أَنَا وَزَوْجَتِي فِي تِلْكَ الْحَجَرَةِ ، فَجَلَسْنَا
نَتَحَادَّثُ فِي شَتَّى عِدَةٍ ، حَتَّى غَلَبَهَا النَّوْمُ وَاخْتَطَفَهَا مِنْ يَدَيَّ ، فَانْتَهَزْتُ
هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَفَعَلْتُ مَا أَشَارَ بِهِ الْقَرْدُ ، وَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ مِنْ نَوْمِهَا وَرَأَتْنِي
فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ قَالَتْ فِي أَلَمٍ وَحَسْرَةٍ : لَأَحُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، أَخَذَنِي
الْمَارِدُ ، وَمَا أَتَمْتُ كَلَامَهَا حَتَّى كَانَ الْمَارِدُ قَدْ خَطَفَهَا ، وَكَانَ قَدْ أَحْدَثَ
فِي الْقَصْرِ ضَجَّةً شَعَرَ بِهَا وَالِدُهَا ، وَعَرَفَ عَاقِبَتَهَا ، فَجَاءَنِي حَزِينًا غَاضِبًا
وَقَالَ : أَهَذَا جَزَاؤُنَا مِنْكَ ؟ لَقَدْ عَمِلْتُ هَذَا الطَّلَسَمَ لِأَصُونُ بَنِيَّ مِنْ
ذَلِكَ الْمَارِدِ الَّذِي يُحَاوِلُ اخْتِطَافَهَا مِنْذُ سِتِّ سَنَوَاتٍ ، وَالْآنَ فَاذْهَبْ
إِلَى بَيْتِكَ ، وَكَفَانَا هَذِهِ النِّكْبَةُ الَّتِي أَصَابَتْنَا بِسَبَبِكَ .

وَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي فَتَشْتُ عَنْ الْقَرْدِ لَعَلَّهُ يَسَاعِدُنِي فِي إِرْجَاعِ زَوْجَتِي ،
فَلَمْ أَجِدْ لَهُ أَثَرًا ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَطَفَ الْفَتَاةَ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي
خَدَعَنِي وَمَكَّرَ بِي ، حَتَّى فَعَلْتُ بِالطَّلَسَمِ مَا أَمَرَنِي بِهِ ، فَلَمْ أُطِقِ الْبَقَاءَ فِي
بَيْتِي ، وَخَرَجْتُ أَمْشِي عَلَى غَيْرِ هَدًى ، وَبَيْنَمَا أَنَا سَائِرٌ وَجَدْتُ حَيَّتَيْنِ
تَتَقَاتِلَانِ ، إِحْدَاهُمَا سَمْرَاءٌ وَكَانَتْ الْبَاغِيَّةَ الْغَالِبَةَ ، وَالْأُخْرَى بَيْضَاءُ وَكَانَتْ
الْمَغْلُوبَةَ ، فَأَخَذْتُ حَجَرًا وَضَرَبْتُ بِهِ السَّمْرَاءَ الظَّالِمَةَ فَمَاتَتْ ، أَمَّا الْبَيْضَاءُ



فإنها غابت قليلاً ثم عادت ومعهما عشرُ حياتٍ بيض ، فاجتمعن حول السمراء المقتولة ، وجعلن يقطعنها قطعةً قطعة ، ثم انصرفن إلى حيث لا أدري . وكنت قد شعرتُ بالتعبِ فاضطجعتُ في مكاني ، وسمعتُ صوتاً لا أعرفُ مصدره يقول : أريحْ نفسك من التفكير ، فلا مفر من المقدور ، ولا بقاء على حال ، فدوامُ الحال من المحال ، فانتبه وجداني وأخذت أتبيّنُ صاحبَ هذا القول فلم أجِدْ له أثراً ، فأطرقتُ إطراقةً انكسارٍ وخيرةً فإذا بالصوتِ أسمعُه يعيد هذا القول مرةً أخرى فقلتُ على أثره : سألتك بالله أن تظهرَ لي يا صاحبَ هذا الصوت ، فإني في حاجةٍ إلى الائتناسِ برؤيتك ، كما ائتنستُ بقولك ، فإذا بإنسانٍ قد وقفَ أمامي قائلاً : نحنُ من الجنِّ المؤمنين ، وقد فعلتَ بنا معروفًا ، فجئنا إليك لنكون في خدمتك ، وقضاء حاجتك ، اعترافاً منا بجميلك وفضلك ، فقلت :

لي حاجةٌ عظيمةٌ ، والأمل في قضائها ضعيف ، فقد أُصبتُ بمُصيبةٍ كانت من صنْعِ يدي ، ونخادعتني ممن وضعتُ فيه ثقتي ، ولا مخلص لي منها ، فقال : أأستأبأ محمد الكسلان ؟

فقلتُ : بلى وربّي ، فقال : أنا أخو الحيةِ البيضاء التي قتلتَ عدوها ، وأنا وأخواتي الحيات نشكرُ لك هذا الجميل ، واعلم أنَّ القرد الذي كان عندك ، هو الذي خَطَفَ زوجك ، وهو ماردٌ من الجن ، وقد احتال عليك وخدعك حتى أفسدتَ الطلسم ، ليتمكن من خطفها ، ولكننا

سنقتله ونردُّ إليك زوجك ، ثم صاح صيحةً عظيمةً ، فحضر على أثرها جماعة من الجن ، فسألهم : أين الماردُ الذى خطف الفتاة زوجة أبى محمد الكسلان ؟ فقال أحدُهم : إنه فى مدينة النحاس ، ثم التفت إلى قائلها : سيحملك ماردٌ على ظهره ، ويطيرُ بك إليها ، وسيعرّفك كيف تُحضرها ، ولكن احذرْ أن تنطق بكلمةٍ وهو طائرُ بك ، فإنك إن نطقت بكلمة أهلكته وكنت معه من الهالكين .

ارتفع الماردُ بى فى الجو حتى خيل لى أنى قريبٌ من السماء ، وإذا بشخص فى الجو قد لبس ثوبا أخضر ، وله وجهٌ جميلٌ ، وفى يده حربَةٌ يتطايرُ منها الموت ، فنادانى قائلاً :

يا أبا محمد ، قُل : لا إله إلا الله محمد رسولُ الله ، ولم يكذبْ ينتهى من قوله حتى وجدتنى أنطق بالشهادتين ، ثم ضرب المارد الذى يحملنى بحرْبته ، فمات لساعته ، وصار رماداً ، ووقعتُ فى بحرٍ واسع ، على مقربةٍ من مركبٍ به خمسة رجال صيادين ، فأسرعوا لإيقاذى من الغرق ، وحملونى فى مركبهم ، وجعلوا يكلمونى وأنا لا أفهمُ لواحدٍ منهم قولاً ، فأثرت إليهم أنى لا أعرف لغتهم .

ولما وصلوا بى إلى مدينتهم ، وأدخلونى على ملكهم ، وكان يتكلم باللغة العربية ، منحنى خلعاً وقال :

قد جعلتك من أعوانى ، وأمر وزيره أن يطوف بى فى أنحاء المدينة لأعرفها وأعرف ما فيها ، وكانت من مَدَن الصين ، يقال لها هناد ، وكان

سكّاهها الأولون كفّاراً ، فسخّمهم الله حجّارة ، وأقمت فيها مدّة شهر
مكرّما ، وأنا لا أدري سبباً لهذا الإكرام .

وبينما أنا جالسٌ ذات يومٍ على شاطئ نهرٍ ، أقبلَ عليّ فارسٌ وحياني
فحيّته ، ثم قال : أأنتَ أبا محمد الكسلان ؟

فقلت : بلى وربّي ، فقال : لقد فعلت بنا جيلاً ، فقلت : ومن أنت ؟
فقال : أنا أخو الحية البيضاء التي قتلت عدوّها ، ولا تخفُ فأنت الآن
على مقربةٍ من زوجتك التي خطفها المارد ، وسأعينك على الوصول إليها ،
ثم ألّبسني ثوباً من ثيابه ، وأردفني خلقه ، وأرّخى العنانَ لفرسه ،
فطارَ بنا ينهبُ الأرضَ نهباً ، حتّى وصلنا إلى بريةٍ واسعةٍ ، يشرفُ
عليها جبالان ، فأنزلني وقال :

سيرُ بين هذين الجبلين حتّى تصلَ إلى مدينةٍ النحاس ، التي فيها
زوجتك ، ولا تدخلها حتّى أجيئك .

أخذتُ أسيرُ بين الجبلين حتّى وصلتُ إلى مدينةٍ سورّها من نحاسٍ ،
فعلمتُ أنها المدينة المقصودة ، فطفتُ حول سورها فلم أجِدْ فيه باباً ،
وبينما أنا في دهشةٍ من أمرِ هذه المدينة التي لا باب لها إذ أقبلَ أخو
الحية ، وناولني سيفاً مطّلسماً ، يقيني الشرّ ويمنعُ عني الأذى ، وكان معه
إخوته ، فقالوا :

ألا ترى هذا الجدول الجارى ؟ فقلت : نعم ، فقالوا : سيرُ معه حتّى
تراهُ انعرج نحو المدينة ودخلها من فجوةٍ في الأرض ، فألقِ نفسك فيه ،



وادخلها مع مائه ولا تخف شيئاً ، فنفذتُ ما أشاروا به ، حتى كنتُ في وسط المدينة ، فرأيتُ بُستاناً : أشجاره من الذهب ، وأثماره من الجواهر الكريمة ، ولما دنوت منه رأيتُ زوجتي جالسةً فيه على مقعد ذهبي جميل ، تحت قبةٍ موشاةٍ بالذهب ، فجريت نحوها ، ولما رأيتني عرفتني وجرت نحوي قائلة :

أهلاً بزوجي ، وأجلسني على مقعدٍ بجوار مقعدها ، ثم سألتني : كيف وصلت إلى هذه المدينة ؟ فحكيتُ لها ما جرى لي بعد خطفها ، وقصتُ هي قصتها ، وكيف حملها الماردُ إلى هذه المدينة ، ثم قالت :

إنّ هذا المارد الملعون من كثرة حبه لي أطلعني على سرّه ، وما يضُرّه وما ينفعه ، واقدمتُ مراراً بالهرب بالوسيلة التي داني عليها ولكنني خُفتُ الإخفاق ، وما يعقبه من غضبه وانتقامه مِنّي ، ومادمت قد جئت فسادك على وسيلة تنجيننا من هذا المارد ، وتمكننا من العودة إلى أهلينا بالبصرة ، وذلك أن تذهبَ إلى ذلك العمود القائم بالحديقة — وأشارت إليه — وستجدُ عنده تمثالاً صغيراً العقاب ، وعليه كتابةٌ لا أعرفها ، فإنّ أنت أخذتَ هذا العقابَ وبخرته بالمِسْك ، حضر إليك العفاريثُ من كل فجٍّ ، وكانوا طوعاً أو رِكاً ، وفي استطاعتهم أن يخلصونا من هذا المارد ويوصلونا إلى البصرة .

فقمّتُ إلى ذلك العمود ، وفعلتُ بالعقاب ما أمرتني به ، وحضر

العفاريتُ من كل ناحية ، وقالوا : نحنُ في طاعتك ، فرنا بما تُريد ، فأمرتهم أن يقيدوا المارد الذي خطف زوجتي بالأغلال والسلاسل ، حتى لا يبرح مكانه ، ولما فعلوا ما أمرتهم به رَجَعْتُ إلى زوجتي ومعى العقاب ، وخرجتُ بها من الطريق الذي دخلتُ منه إلى المدينة ، فوجدتُ إخوة الحية البيضاء في انتظارى ، فساروا بنا نحو البحر ، وأحضرُوا لنا مركبا حملنا إلى مدينة البصرة ، فذهبتُ بزوجتي إلى بيتي ، وعَلِمَ بذلك أبوها وأهلها ، فجاءونا مُسرعين ، يُهَيِّئُونَا بِالْعَوْدَةِ سالمين .

وبعد أن استرحنا في بيتنا آمنين ، بَحَرَّتْ العقابُ بالمسكِ فحضرَ العفاريتُ قائلين : لبيك لبيك ياسيدنا ، فرنا بما تريد ؛ فأمرتهم أن ينقلوا إلى بيتي ما في مدينة النحاس من ذهب وجواهر ومال ، ففعلوا ما أمرتهم به ، ثم جعلتهم يحضرون المارد الذي خَطف زوجتي ، فلما حضر أمرتهم أن يحبسوه في قفم ضيقٍ من النحاس ، وأن يحكموا إغلاقه بالرصاص ، ففعلُوا ثم سَرَّحْتُهُمْ ، وأصبحتُ بفضل الله في هذا الغنى الواسع ، وأصبح العفاريتُ في طاعتي وتحت أمري ، بسبب العقاب الذي عُنْدِي ، وهذه حكايي يا أمير المؤمنين .

فمَجَّبَ الخليفة ، ثم أَكْرَمَهُ وَخَلَى سبِيلَهُ ، وذلك بفضل الله يؤتیه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .



عبد الله البرى وعبد الله البحرى

(١)

زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي الْبَصْرَةِ - إِحْدَى مُدُنِ الْعِرَاقِ - صَيَّادُ سَمَكٍ
اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَكَانَ غَائِلًا ذَا بَنِينَ وَبَنَاتٍ ، فَقِيرًا ؛ يَعِيشُ عَيْشَةً ضَنْكًا ؛
وَلَكِنَّهُ كَانَ قَلِيلَ الشَّكْوَى ؛ يَقْنَعُ بِالْيَسِيرِ ، وَيَرْضَى بِالْقَلِيلِ ؛ وَكَانَ
يَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَرْوِحُ بِمَا اصْطَادَهُ مِنْ سَمَكٍ ، يَبِيعُهُ ،
وَيَشْتَرِي بِهِ مِنْهُ رِزْقًا لَزَوْجِهِ الْخُبْلَى ، وَأَطْفَالِهِ الصَّغَارِ .

وَجَاءَ زَوْجُهُ الْمَخَاضُ ، فِي يَوْمٍ آذَنْتُ شَمْسُهُ بِالْمَغِيبِ ، وَأَنْطَلَقَتْ
رِيحُهُ عَاصِفَةً قَاسِفَةً ، وَوَمَضَ بَرْقُهُ لَامِعًا خَاطِفًا ، وَهَطَلَ مَطَرُهُ مُتَدَارِكًا
مُتَتَابِعًا .

وما طالع الفجر أوكاد - حتى وضعت زوجته ولدا، وأصبح عائل عَشْرَة،
لا يكسبُ أكبرهم قوتَ يومه؛ فلم يبتس عبدُ الله، لأنه يعلم أن
«الذي شقَّ الأشدَّاق، متكفِّلٌ بالأرزاق» .

وبات عبد الله ليلته ساهداً ساهراً، لم يذُق النوم إلا غراراً، ولم
يقعد به ما عناهُ عن تبكيه في طلبِ الصيد كعادته .

نفرج إلى البحر مع الصباح، وظلَّ يرمى شبكته دائماً لا يعرفُ
فتوراً، حتى أدركه الليلُ، وأمسى المساء، ولم يفتح اللهُ عليه بسمكةٍ
واحدة، فقفَل راجعاً كاسف البال، ضيقَ الصدر، لا يدري ما السبيلُ
إلى طعمِ زوجِ نَفْساء وأطفالٍ زُغِبِ الحواصلِ جِياع .

ولكنه مرَّ في رواحه على حانوتِ خبَّاز فوجد عليه جاعةً من الداس
يتدافعون بالمناكب، وسرَّعان ما عطرتُ رائحةُ الخبز معاطسه، فصاحت
عصافيرُ بطنه، وأطرق متنهداً؛ فتوسَّم الخبازُ ما في نفسه، فنأداه:
يا صيادُ! أتريد خبزاً؟

فسكتَ عبد الله لا يحير جواباً .

فقال له الخبازُ:

لا تستنكفُ أن تطلبَ خبزاً بثمانٍ مؤجلٍ إلى أمرٍ قريب
أوبعيد .

فقال له عبدُ الله في كثير من الحياء:

أشكرُ لك كرمك، ولكنَّ نفسي لا تطوِّعُ لي هذا، فخذ شبكتي

هذه رهناً عندك ، حتى أوفيك ثمن خُبْزِكَ .

فقال الخبازُ : كيف ترهن شبكتك يا مسكين ، وهى عُدَّتْكَ
وعتادُك ؟ !

فقال له عبد الله : صدقت ، وأبقى على الشبكة ، وأخذ من الخباز
ما يكفى أهل بيته من الخُبْزِ ، ونفحه الخبازُ عشرة أنصافِ فِضَّةٍ
للنَّفَقَةِ .

ظلَّ عبدُ الله على هذا الحالِ أربعين يوماً يفتدى إلى البحر ، ثم يروح
خاوى الوفاض ، لم يَصِدْ سمكةً واحدةً ، ثم يمرُّ على الخبازِ مستخياً ، يُحِثُّ
خُطَاهُ ، حتى لا يراه ؛ ولكنَّ الخبازَ يُناديه ، ويُعطيه ما تعود أن يُعطيه
من خُبْزٍ وفضةٍ ، من غير أن تخبُّبَ نفسه ؛ فيعرض عنه ، ويمنعَه رَفْدَه .
وفى اليوم الحادى والأربعين استيقظَ عبدُ الله مبكراً ، وتناولَ طعام
الصَّبَاح ، وتلصَّكاً فى الخروج .

فقالت له زوجته : مالك لا تعدُّ العُدَّةَ للخروج إلى البحر كما دتكَ ؟
فقال لها ، وقد بدا البؤسُ واليأسُ على وجهه :

لقد مللتُ الصيدَ فى غيرِ جدوى ، وكَرِهْتُ أن أُمِرَّ على الخبازِ كل
يومٍ ؛ فيُعطينى خُبْزاً وفضةً .

ثم ثارتْ ثأثرته ، وهمَّ بتمزيق الشبكة ، لولا أنْ حَالَتْ زوجته بينه
وبينها ؛ وقالت له :

أقنطت من رحمة ربِّك ؟

فقال لها : أعوذُ بالله أن أكون من الفانطين ؛ ولكنى أكاد أذوب
 حياءً من الحباز كلما تصدق علىّ ، وليس لى طريقٌ إلى البحر إلا طريقه .
 فقالت له زوجته : هل منّ عليك ، أو آذاك بكلام ؟

فقال لها : معاذ الله ! إنه لنبيلٌ كريم ولكن إلى متى يتراكم علىّ
 الدينُ وهو (همٌّ بالليل ومَذَلَّةٌ بالنهار) ولا ألمحُ في أفق الأمل رجاءً
 فى أدائه .

فقالت : هوّن عليك فسيكفيكهُ الله ، ويرزقك من حيثُ
 لا تحسب .

فسمع الصيادُ لزوجته ، ولقى كلامها منه قبولاً حسناً ، فعملَ شبكتهُ ،
 وذهب إلى البحر ورماها يصطاد ، فشمر بعد قليل بثقل فيها ، فهشَّ
 واستبشر ؛ ثم عاجلها ؛ حتى أخرجها بعد عناءٍ شديدٍ ؛ ولكنه وجدَ فيها
 حماراً مَيِّتاً ؛ فقال :

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله .

ثم انتبَرَ مكاناً قصيماً ؛ حتى لا تأخذه رائحةُ الجيفةِ ، ورعى شبكته ،
 ثم جذبها فوجدها ثقيلةً فأخذ يُعَالَجها حتى أخرجها ، وقد أدمت يديه ؛
 فإذا فيها مخلوق عجيبٌ ظنه مارداً يبنى به شراً ؛ فسرت الرعدةُ فى
 جسمه ، ورعى الشبكة على الأرض ، وولّى هارباً ؛ يصيحُ من الخوف ،
 يَرجو المعونة والغوثَ ؛ فانبعث من الشبكة صوتٌ يناديه :



لا تخف يا أخا البشر ، فإنني لستُ ماردًا ، ولا شيطانًا ، ولكنني
عبدٌ من عبادِ الله المؤمنين سكانِ البحر ، لا أريق دماءً ، ولا أؤذي إنسانًا
فتعال خلّصني من شبكتك ، فقد أضرتُ بي حبالها ، ولك من الله الأجر ،
ومنى الحمد والشكر .

فأما سمع عبد الله كلام البحري سكن روعه ، واطمأن قلبه ، وسرى
عنه ؛ ورجع إلى شبكته ، فخلص البحري منها ، وتبينه ، فإذا هو في نصفه
الأعلى إنسانٌ كاملُ الخلقة ، له لحية كثرة ، وشاربان محفوفان ، وأنف أقي
وعينان واسعتان براقتان ؛ ثم هو في نصفه الأسفل سمكة لها ذنب ،
فتبارك الله أحسنُ الخالقين .

فقال له عبد الله : من أنت ؟ !

فقال البحري : أنا عبدُ الله ، أسكنُ البحر ، وأسبحُ في جنباته ، كما
تسكنون أنتم معشر الإنس الأرض ، وتمشون في مناكبها ، وقد رميت
على شبكتك في أثناء تجوالي ، وكان في وُسعي أن أقطعها ، ولكنني خفت
الله ، وقد صرتُ في يدك ، فافعل بي ما تشاء ، ولو أعتقتني ابتغاءَ رضا الله ،
لكنْتُ لك من المخلصين : أغوصُ في البحر وآتيك كل يوم بما تشاء
من دروزمرد ، وياقوتٍ ومرجان .

فأطلقَ عبد الله البري عبد الله البحري ، بعد أن تأخيا ، وتماهدا
على أن يأتي عبد الله البري في مطلع الفجر ، ومعه بعض ما تنبتُ الأرض
من تين ، وعنب ، وسفرجل ، وتُفاح ، وكثيرى ، وبلح ، ورُمان ؛ ليلقى

عبد الله البحرى ، ومعه بعض ما يخرج البحر من در ، وزُرد ، وباقوت ،
ومَرْجَان .

وغاص عبدُ الله البحرى فى البحر ، بعد أن قال لعبد الله البرى :
البث قليلاً ، آتاك ببعض ما عندنا من جواهر قيمتها عندنا قيمة
الحصى والحصباء عندكم .

ولبث عبدُ الله البحرى بضع دقائق ، خالها البرى ساعاتٍ طويلة ،
فهمجست فى نفسه الهواجس ، وندم على أن صدق البحرى ، وعلى أن
تركه يفلت من يده ، فما يدريه ؛ لعله أن يكون خبياً مخاتلاً ، خدعه
بزخرف من القول .

وبينما هو كذلك ، تساوره وساوسه إذ خرج البحرى فى كلٍّ من
يَمْنَاهُ وَيُسْرَاه قبضةً من الجواهر الكريمة ؛ فلما رآه البرى تهلل وجهه
بشراً ، وندم على أن ظنَّ بصاحبه سوءاً .

ثم كان بينهما موقف وداع ، فغاص البحرى فى البحر ، وعاد البرى
أدراجه بعد أن ألقى بالشبكة فى الماء .

ومرَّ الصياد على الخباز ، فناداهُ كمادته ، فلبَّى ندائه ، ولما أعطاه الخباز
والفضة أعطاه نصف ما معه من جواهر ، وقال له :

خذْ هذه الجواهر جزاء وفاقاً لكرمك ، وطيب عنصرك ، ونبل
أخلاقك .

ففغر الخباز فاه دهشاً ، وأخذ منه ما قدَّم له ، ثم دعا له بالسعادة ،
وطول العمر .

ولما وَصَلَ عبد الله إلى بيته ، ورأتُ زوجته وبَنُوهُ مامِعَهُ من جواهر خَرَّتِ المرأةُ ساجدةً لله ، وانهمرتُ من عَيْنِهَا دُمُوعُ الفرح ، ورقَصَ الصَّبِيَّةُ جذلاً وحبوراً .

وبعد أن أَوَى عبد الله إلى مَضْجَعِهِ ، واستَجَمَّ قليلاً ، حملَ جوهرةً ثَمِينَةً ، وذهبَ بها إلى كبيرِ الصَّائِغِينَ ، يَعْرضُهَا للبيعُ ؛ فلما رآها الصائِغُ في يَدِهِ ، حَدَجَهُ بنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ لا تَخْلُو من عَجَبٍ وَدَهْشَةٍ ؛ ثم سألَهُ :
من أين لك هذه الجوهرة ؟

قال : هيَ جوهرةٌ تى ، وعندي منها كثير .

فنادى الصائِغُ الشرطىَّ ، وكَلَّفَهُ أن يقبضَ على عبد الله متهمًا إِيَّاهُ بالسُّطُو على بيتِ الوالى ، وسرقةِ جواهرِ زوجته ، وكان اللصُّوصُ ، قد سَطَّوْا عليه بالأمس ، وسرقوا ما عَثَرُوا عليه من حُلَى وجَواهر .
وسيقَ عبد الله إلى بيتِ الوالى مكبَّلاً بالحديد ، فسألَهُ الوالى :
من أين لك هذه الجوهرة ؟

فروىَ له قصته في تفصيل لم يدعُ منها شيئًا .

فمَجَّبَ الوالى جَدَّ العَجَبِ ، وأمرَ ، فَعُرِضَتِ الجوهرةُ على زوجته ؛ فَشَهِدَتِ بأنها لا تُشَبِّهُ أَىَّ جوهرةٍ من جَواهرِها المَسْرُوقَةِ ؛ فَثَبَّتَتْ بذلك بَراءَةَ عبد الله .

وظلَّ عبدُ الله يتردَّدُ على البحرِ ، ويلقَى صديقَه البحرى في الزَّمانِ والمكان الذى يَتَّفَقَانِ عليه كلَّ مرةٍ ، فَيُقَدِّمُ هُوَ لَهُ ما يَحْمِلُهُ من صنوفِ

الفَوَاكِهِ ، ويُقَدَّمُ لَهُ الْبَحْرِيُّ جِلَّةٌ مِنْ ثَمِينِ الْجَوَاهِرِ ، وَيَجْلِسَانِ بَعْضُ
الْوَقْتِ يَتَحَدَّثَانِ وَيَتَسَامِرَانِ ، ثُمَّ يُسَلِّمُ كُلُّهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ ، وَيَفْتَرِقَانِ
عَلَى مِيعَادٍ .

وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَرِي بَعْضَ مَا كَانَ يَأْتِيهِ بِهِ الْبَحْرِيُّ مِنْ جَوَاهِرٍ ،
وَاخْتَصَّ بِهَا صِغَارَ الصَّائِفِينَ ، وَحَرَّمَ كَبِيرَهُمْ مِنْ شِرَائِهَا ، جَزَاءً وَفَاقًا
لِسُوءِ ظَنِّهِ بِالنَّاسِ ، وَتَسْرُعِهِ فِي انْتِهَامِهِمْ ، وَإِهْمَالِ الرَّوِيَّةِ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ .
وَاشْتَرَى بَعْضُ مَا صَارَ لَهُ مِنْ ثَمَنِهَا ضِيَاعًا عَرِيضَةً ، وَرِياضًا أَرِيضَةً ،
وَحَدَائِقَ غَلِيًّا ، وَبَنَى قَصُورًا لَا تَأْخُذُهَا الْعَيْنُ ، وَذَكَرَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ
وَالْيَتَامَى وَالْأَيَامَى ، فَأَجْرَى عَلَيْهِمْ أَرْزَاقًا ، وَبَنَى لَهُمْ مُسْتَوْصَفَاتٍ ،
وَمَلَّاجِيٍّ ؛ يَفْزَعُونَ إِلَيْهَا إِذَا تَنَكَّرَ لَهُمُ الدَّهْرُ ، أَوْ عَثَرَهُمُ الْجَدُّ ،
فَعَضَّهِمُ الْمَرَضُ ، وَأَلَحَّتْ عَلَيْهِمُ الْعَلَّةُ .

وَشَاعَ بَيْنَ النَّاسِ اسْمُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَلَمَعَ نَجْمُهُ ، وَعَلَا كَعْبُهُ ، وَلَقَّبُوهُ
بِالْعَنِيِّ الْكَرِيمِ ، وَقَرَّبَهُ الْوَالِي إِلَيْهِ ، وَعَرَّضَ عَلَيْهِ أَنْ يَرْوِّجَهُ مِنْ ابْنَتِهِ ،
فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

« مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أُضَارَ مِنْ أَحْسَنَتْ عَشْرَتِي فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَمَنْ
كَانَتْ إِذَا ضَلَلْتُ هَدَيْتَنِي ، وَإِذَا سَمِئْتُ الْحَيَاةَ بَعَثْتُ الْأَمَلَ فِي نَفْسِي ؛
هَلْ آكُلُهَا لَحْمًا ، وَأُلْقِيهَا عَظْمًا ؟ » وَاللَّهُ لَا يَكُونُ هَذَا أَبَدًا .

فَأَكْبَرَ الْحَاكِمُ وَفَاءَهُ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ ، وَقَالَ لَهُ :
مَا أُرَدْتُ بِزَوَاجِكَ مِنْ ابْنَتِي إِلَّا أَنْ يَعْلُوَ شَأْنُكَ ، وَتَسْمُوَ إِلَى

درجة الأمراء ، فلا يكيد لك كائد ، ولا يطمع في مالك طامع ، فإن المال يغري الناس ، وإذا قد رغبت عن أن تكون أميرا ، فإنني جاعلك وزيرا .
فشكر عبد الله للوالى عطفه عليه ، وحذبه به ، وإكرامه له ، ودعا له بالعز والتأييد ، وبسطة السلطان .

(٢)

اغتنى عبد الله البرى إلى البحر يوما كعادته ، ومعه غلامه الأمين يحمل سلة مملوءة بالفاكهة ، فوجد عبد الله البحرى فى انتظاره ، فتبادلا التحية ، وقدم إليه الفاكهة ، فأخذها ، وغاص بها فى البحر ، ثم رجع بعد قليل ومعه السلة مملأة بالأحجار الكريمة ، فأعطاها البرى فتاه ، وأمره أن يتوجه بها إلى القصر ، وجلس يتخذ إلى البحرى ، ويستمع إليه ، والحديث ذو شجون :

قال البحرى : هل حججت البيت الحرام ، وزرت النبى الكريم ؟
فقال البرى : لا ، لأنى كنت فقيرا ، لا أستطيع إلى ذلك سبيلا .
قال البحرى : إني أعجب لكم معشر البريين ، يلهمكم التكاثر حتى تزوروا المقابر !! (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) ، فليتنا نستطيع نحن البحرين أن نحج البيت أو نزور قبر النبى !!

فقال البرى : جزاك الله يا أخى خيرا ، فلقد بصرتني بواجب مقدس

أعاهدك على أدائه في القريب إذا شاء الله ، وسأدعوك لك حين أستلم الحجر الأسود أن يشرح الله لك صدرك ، ويرفع عنك وزرك ، وأذكرك بخير في الروضة الشريفة .

فقال البحرى : خار الله لك فيما عزمت عليه ؛ وسأحمك أمانةً تعلّقها بيدك في الحرم النبويّ ، وهي أكبر درّةٍ احتوت عليها البحارُ ، فهيّا معي إلى داري أسامك هذه الدرة اليتيمة .

قال البرى : إني لا أستطيع معك صبرا على الماء ، فإنه يغرقنا ، ولا يُفرّقكم .

قال البحرى : إنه لكذلك ، ولكني ذاهبٌ إلى داري ، وسأتيك بدّهانٍ عندي يعصمك من الغرق ، ولا عاصمٍ إلا أن يشاء الله .
قال البرى : لك ذلك .

وخاص البحرى في الماء ، ولم يطل به المقام حتى عاد وفي يده صدفة كبيرة فيها دهان أصفر كالذهب ، طيّب الرائحة .
قال البرى : ومم يُصنع هذا الدهان ؟

قال البحرى : يُصنع من شحم نوع من السمك يسمى (الدندان) وهو أضخم دواب البحر جسماً ، وأعظمها قوةً ، وأشدّها فتكاً ، وأضرّها لنا عداوة .

فقال البرى : وهل عندهم من (الدندان) كثير ؟

قال البحرى : هو في البحر كالرمل في الصحراء .

قال البرى : إني أخاف أن يأكلنى (الدندان) إذا أنا غُصْتُ معك
في البحر .

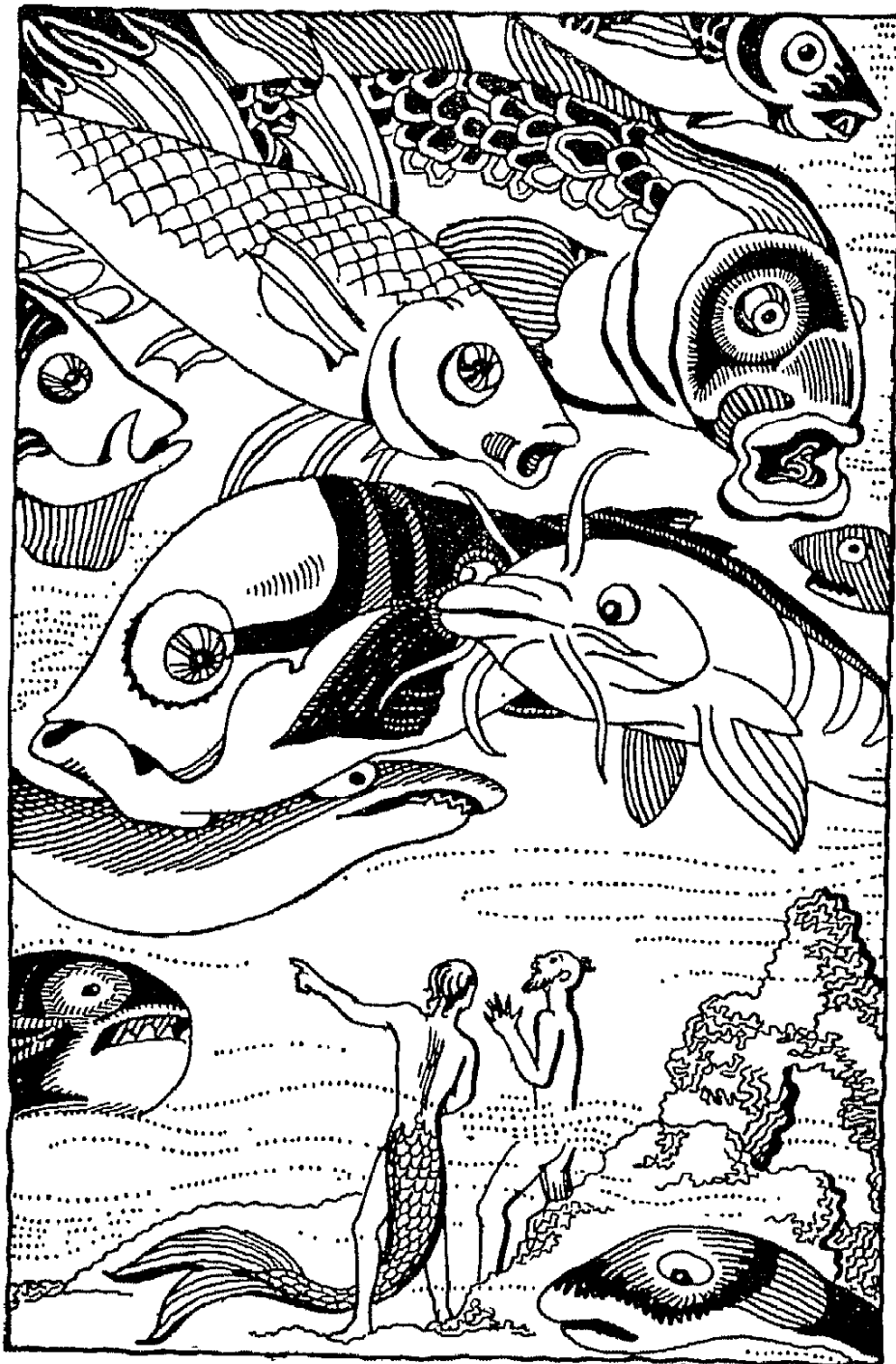
قال البحرى : لا تخف ؛ فإنه لا يخاف من شئ خوفه من الإنسان ؛
فإذا رآك معى ، فرّ هارباً لا يلوى على شئ .

وخلع البرى ثيابه ، ودهنه البحرى بالدهان ، وغاص البحرى
في الماء ، وتردد البرى .

فناداه البحرى :

أقدم يا أخى ، وتوكل على الله .

فاستخار الله ، واندفع في الماء ، فألقى جسمه خفيفاً ، وغاص فيه ؛
فوجد نفسه بريئاً من الضيق الذى كان يشعر به حين كان يغوص في
الماء ، يطلب الصيد في سنيه العجاف ؛ فاطمأنت نفسه ، وتبع البحرى ،
ومشياً معاً على قاع البحر ؛ فشاهد عبدُ الله البرى جبلاً شاهقة وهضاباً
مبسوطاً ، وسهولاً فسيحةً ، وودياناً عميقة ، ورأى أنواعاً من السمك
لا يحصىها العد ، قد تباينت حجومها ، واختلفت ألوانها ، منها ما يشبه
الفيلة ، وما يحاكي البقر ، وما يضارع الكلاب ، وما يضاهي الثعابين
ورأى حيواناً عجيباً له نحو خمسين ذراعاً يتلوى في الماء كما تتلوى ثعابين
البر ، ورأى ألواناً لم ير لها في البر شبيهاً ولا مثيلاً ، من أبيض ناصع ،
وأحمر قانٍ ، وأخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، وأسود فاحم ، وألواناً أخرى
لا يعرف لها أسماء .



الأسماك
التي
توجد
في
البحر
المتوسط
والبحر
الحمراء
والبحر
الهند

General Organization Of the Alexandrian Library IGOAL

Bibliotheca Alexandrina

وسُرْعَانِ مَا وَصَلَا إِلَى أَوَّلِ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ سُكَّانِ الْبَحْرِ ، فَوَجَدَ
شَوَارِعَهَا مَتَّسِعَةً مَنَسَّقَةً مُسْتَقِيمَةً تَشُقُّ الْمَدِينَةَ مِنْ أَقْصَاهَا إِلَى أَقْصَاهَا ،
وَبَهْرَتُهُ الْخَدَائِقُ كَثِيرَةٌ رَاضِيَةٌ ، وَالْبَسَاتِينُ نُضْرَةٌ بَارِعَةٌ ، وَالْمَدَارِسُ
جَمِيلَةٌ وَاسِعَةٌ وَهَالِهِ أَنْ يَرَى الْمَسَاجِدَ مَبْنِيَةً بِأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ ، يَكَادُ سَنَا
نُورِهَا يَخْطِفُ بِالْأَبْصَارِ .

وَكُنَّا كُلَّمَا قَابَلَا بِحَرِيًّا ابْتَسَمَا وَحَنَّا رَأْسَهُ إِجْلَالًا لَهَا وَاحْتِفَاءً بِهَا ،
وَلَكِنْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدَّهْشِ وَالْعَجَبِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَقْتَرِبُ مِنَ
الْبَحْرِ ، فَيَكْلُمُهُ كَلَامًا لَا يَفْهَمُهُ الْبَرِيُّ ، ثُمَّ يَنْطَلِقُ إِلَى سَبِيلِهِ .
قَالَ الْبَرِيُّ لِلْبَحْرِيِّ : عَمَّ يَسْأَلُونَكَ ؟ !

قَالَ الْبَحْرِيُّ : يَسْأَلُونَنِي عَنْكَ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْجُبُونَ كَيْفَ خَلَقَكَ اللَّهُ مِنْ
غَيْرِ ذَنْبٍ .

قَالَ الْبَرِيُّ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! هُمْ يَعْجُبُونَ خَلْقِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ، وَأَنَا
أَعْجِبُ خَلْقَهُمْ بِأَذْنَابٍ !

وَعَادَ الْبَحْرِيُّ وَالْبَرِيُّ الْمَدِينَةَ ، وَضَرَبَا فِي مَسَالِكِ الْبَحَارِ حَتَّى
أَشْرَفَا عَلَى مَدِينَةٍ ذَاتِ أَسْوَارٍ عَالِيَةٍ ، لَهَا أَبْوَابٌ ثَقِيلَةٌ مَصْفُوحَةٌ بِالْحَدِيدِ
وَمَا كَادَا يَقْتَرِبَانِ مِنْهَا ؛ حَتَّى أَهَابَ بِهِمَا حُرُاسُهَا أَنْ قِفَا فَوْقَهَا ، ثُمَّ انْحَرَفَا
عَنْ طَرِيقِهَا .

قَالَ الْبَرِيُّ لِلْبَحْرِيِّ : وَمَا خَطَبُ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؟

قَالَ الْبَحْرِيُّ : هَذِهِ مَدِينَةُ الْمَذْنَبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ؛ فَإِنْ كُلُّ أُنْثَى

تَقْتَرِفُ ذَنْبًا مَهْمَا يَكُنْ صَغِيرًا ، تَغَادِرُ أَهْلَهَا وَبَلَدَهَا وَوَلَدَهَا (إِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ) مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهَا إِلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، تَقْضِي فِيهَا حَيَاتَهَا ، تَقُومُ اللَّيْلَ ، وَتَصُومُ النَّهَارَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهَا ذَنْبَهَا .

فَمَجِبَ الْبَرَى ، وَقَالَ : وَهَلْ عِنْدَكُمْ مَدِينَةٌ لِلْمُذْنِبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ؟

قَالَ الْبَحْرِيُّ : نَعَمْ !

قَالَ الْبَرَى : وَهَلْ عِنْدَكُمْ كَمَا عِنْدَنَا قُضَاةٌ ، وَشُرَطٌ ، وَعَسَسٌ ، وَخُفَرَاءٌ ؟ !

قَالَ الْبَحْرِيُّ : لَا . إِنْ كُلُّ بَحْرِي يَعْرِفُ قَوَانِينَ الْبَحْرِ ، وَيُؤْمِنُ بِهَا ، فَلَا يَخَالِفُهَا ، وَلَا يَحَاوِلُ الْخُرُوجَ عَلَيْهَا ، إِلَّا قَلِيلًا ؛ وَمَنْ يَخَالِفُهَا طَوْعًا ، أَوْ كَرْهًا ، رَجُلٌ أَوْ امْرَأَةٌ يُغَادِرُ أَهْلَهُ وَبَلَدَهُ وَصَحْبَةَ إِلَى مَدِينَةِ الْمُذْنِبِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، أَوْ مَدِينَةِ الْمُذْنِبَاتِ مِنَ النِّسَاءِ .

قَالَ الْبَرَى : وَكُلُّكُمْ سِوَايَ فِي الْغَنَى ، وَبَسْطَةِ الْمَالِ ؟

قَالَ الْبَحْرِيُّ : لَا . مِنَّا الْغَنَى ، وَمِنَّا الْفَقِيرُ ، وَسَبَبُ الْغَنَى وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْكَدُّ وَالْجِدُّ ، وَسَبَبُ الْفَقْرِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ الْكَسَلُ وَالْخُمُولُ .

وَمَا زَالَا سَاطِرِينَ ، إِلَى أَنْ وَصَلَا إِلَى بَلَدِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَحْرِيِّ ، وَهِيَ حَاضِرَةُ مَلِكِ الْبَحْرِيِّينَ ، فَرَأَى فِيهَا مِنْ الْعَجَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَرَى .

وَأَكْرَمَ عَبْدُ اللَّهِ الْبَحْرِيُّ مَثْوَى صَاحِبِهِ ، وَعَرَّفَهُ بِزَوْجِهِ وَبَنَاتِهِ وَبَنِيهِ ، فَرَأَى فِي زَوْجِهِ جَمَالَ وَكَمَالَ ، وَعِفَّةً وَحَيَاءً ، لَمْ يَمُهِدْهَا بَيْنَ

البريين ، ورأى في بنيه علماء وأدبا ، لم يألُفهما في بني قومه .

وانتهى خبر البرى إلى ملك البحرين ، فبعث في طلبه فصحبه عبد الله البحرى إلى قصر الملك ، وقص على الملك قصة صاحبه ، فعجب الملك جدّ العجب من شكله ، وتلطف معه في القول ، واستأذنا في الانصراف ، فأذن لهما ، فرجعا إلى دار عبد الله البحرى ، وحان وقت الغداء ، فقدم البحرى لصاحبه ألوانا من السمك كثيرة ، فعافها البرى ؛ وقال : إننا معشر البريين ، لا نأكل السمك نيئا .

قال البحرى : ليس في مكننتنا أن نشعل النار في البحر .

فقال البرى : هذا فراق ما بينى وبينك .

فشاع الحزن في وجه البحرى على فراق صاحبه ، وقد كان بوّده لو استطاع المقام معه أياما ، ودخل في غرفة ، ثم خرج منها ، ومعه جوهرة تكاد لتألقها نضىء ، فأخذ سنّاها يبصره .

فقال للبرى : هذه هي الأمانة التى حدثتك عنها .

وقبل أن يغادر البرى دار صاحبه ، سمع غناء في بيت جار صاحبه البحرى ، فطرب له ، وسأل عنه ؛ فقال البحرى :

إن جارى قد أدركته منيته ليلة أمس ، فأهله لذلك يطربون ، ويقصِفون .

قال البرى : إن أمرهم عجب ! يفرحون بموت أبيهم ؟ !



قال البحرى فى كثيرٍ من العجب : وماذا تصنعون أتم معشر البريين
إذا مات أحدكم ؟

قال البرى : إذا مات أحدنا ، حزن أهله ، وبكاه خيلانه ، وقد يدفعهم
الأسى إلى لطم الخدود ، وشق الجيوب .

فقال البحرى : نعوذ بالله . إنكم لظالمون ، كيف تحزنون حين يسترد
الله وديعته ؟

ثم قال فى لهفة : أين الأمانة ؟ هاتها ؛ فاستم أهلا لها ، وهذا فراق
بنى وبينك .

وخرج عبد الله البرى من البحر ، فوجد ثيابه حيث تركها ،
فلبسها ، وذهب إلى بيته ولبث فى أهله يفكر فيما رأى فى البحر من
عجائب ، ظل يرويها فى المجالس ، ويتندر بها فى المنتديات ، إلى أن قضى
نحبه حين وافاه أجله المحتوم .



أنس الوجود والورد في الأكام

(١)

كان الملكُ شامخٌ ملكاً مرهوب الجانب ، عزيزَ السلطانِ ، يحكم
بلادَه حكماً عادلاً ويسهرُ على مصلحةِ شعبه ، ويعملُ على رفاهيته ،
وجلبِ الخيرِ له ، متى وجدَ إلى ذلك سبيلاً ، ويدفعُ عن بلادِه الأعداءَ
والطامعين بدُربةٍ ودِراية . لذلك كان محبوباً من شعبه ، مرئوفاً من
رعيته .

وكان الملكُ شامخٌ إلى جانبِ عنايته بأمرِ الحكيمِ في بلادِه يُعنى
بتَهذيبِ قومه وتعليمهم ، ورفعِ مستوى الثقافة بينهم .
وكان يحبُّ الأدبَ والأدباءَ ، ويكرمُ الشعرَ والشعراءَ ، وحبَّذ
الآلِهابَ الرياضية ، وشجعَ الرياضيين .

فكان كثيراً ما يجتمعُ بقصره العلماء والأدباء والكتابُ والشعراءُ ،
يسمرون ويتناقشون ويتناظرون ، وكانت تمتدُّ جلّساتهم مع الملك إلى
وقتٍ متأخر من الليل ، والملك لا يسأمُ مُجَالَسَتِهِمْ ، ولا يعلُّ محادثتهم ،
بل كان يستزيدهم بأسئلةٍ تدلُّ على عِلْمٍ غزير ، واطلاعٍ واسع ؛ وكان
يحاجُّهم في كلِّ بابٍ بطرقونه على الرِّغم مما يحمل من مشاق طول يومه
في تصريف شئون دولته .

كما كان من عادة هذا الملك أن يُقيمَ لفنونِ الألعاب والرياضة المختلفة
كالفروسية وألعاب السيف والصَّولجان والكرة حفلاتٍ وحلّباتٍ يحضرها
بنفسه تشجيعاً للهواة على الاشتراك فيها ، وحفزاً لهم على إتقان ضروبها .
وكان لهذا الملك وزيرٌ لا يقلُّ عن مَلِكِهِ علماً وفضلاً ، اسمه إبراهيمُ ،
كانت له ابنةٌ وحيدةٌ ، تَبَّأتُ طلعتها يومَ مولدها على أنها ستَكُونُ
فريدةً في الحُسنِ والجمالِ ، فسَمَّاهَا « الوردُ في الأكمام » ونشأها على العلم
والأدب والتهذيبِ والتقوى ، فَشَيَّتْ بعقلٍ مُثَقَّفٍ راجحٍ ، ونفسٍ وثابةٍ
للعلا ، متفتحةٍ للأخذ من كلِّ منهلٍ يزيدُ في ثقافتها ، مشوقةٍ للارتشاف
من كلِّ ينبوعٍ تأنسُ منه رِيّاً يطفئُ وَقدَةَ ظمئها إلى المعرفة .

وكان الملكُ يحنو عليها ويدلِّلها وهي طفلةٌ ، فلما كبرت ولمس فيها
شِدَّةَ وَلَعِها بالعلم وحبها للأدب — شملها برعايته وخصَّها بعنايته ، وأخذ
بيدها في كلِّ ما استغلقَ عليها فهمه ، وأنزلها من نفسه منزلة الابنة .

وكانت عادةُ الملك أن يقيمَ حفلات رياضية ، يتسايِفُ فيها الرجالُ ،

ويتسابق الفرسانُ ، في ساحةٍ قصره ؛ ويشهدها كثيرٌ من خاصّته ،
وكان النساءُ يشهدنّها من شُرُفات القصر .

ولم يحدث قطُّ أن تخلّفت الوردُ في الأكامِ عن حضورِ أىِّ حفلةٍ
يقيمها الملكُ لتشجيعِ أىِّ ضربٍ من ضروبِ الرياضة ، بل كانت دائماً
في مقدّمة المشاهدات من النساء ، محتلةً مكانها من شُرقتها المشرفةِ على
الساحة المعدّة للاحتفالات .

وكان المعتادُ في أمثال هذه الاحتفالات التي يشرفها الملكُ أن
يحضرها جميعُ رجال قصره وحرّسه ورجال دوائيه وجمعٌ كبيرٌ من
الكبراء والأعيان .

ولفتَ نظر الورد في الأكام في هذه الحفلات مرأى شابٍ وسيمٍ ،
فارح الطول ، عريض المنكبين ، جميل الوجه ، مليح التقاسيم ، وكان
دائماً في الصفوف الأولى بين رجال الملك ، ولم تكن تعرف من هو ،
وكانت كلما همّتُ بسؤال من يكن معها من النساء استتحت من ذلك .

ثم أقيمتُ حفلةٌ للعبِ الكرة ، وكان الشابُّ على عادته ، أتى
وجلس في مكانه بين رجال الملك . والوردُ في الأكام أتت ، واحتلتُ
مكانها من شُرقتها ، لا تصحبها فيها غيرُ قهرمانة لها ، فتشجعت وسألتُ
القهرمانة :

من يكون هذا الشاب الواقفُ بين رجال الملك ؟

فقالت القهرمانة ، وهي تنظر إلى ناحية رجال الملك :

أَيَّ شَابٍ تَعْنِينَ يَا سِيدَتِي ؟ !

فَقَالَتْ الْوَرْدُ فِي الْأَكْخَامِ :

الشَّابُّ الْوَسِيمُ الْجَمِيلُ ، الْخَفِيفُ الظِّلُّ ، الْعَذْبُ الرُّوحُ ، الَّذِي لَا تَفَارِقُ شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةُ الرِّضَا وَالْإِيمَانِ .

فَقَالَتْ الْقَهْرْمَانَةُ وَهِيَ تَضْحَكُ :

إِنْ جُلَّهْمُ يَا بِنْتِي مَلِيحٌ وَجَمِيلٌ ، وَإِنَّهُمْ جَمِيعًا ذَوُو رُوحٍ عَذْبٍ ، وَعَلَى شِفَاهِهِمْ ابْتِسَامَاتٌ تَدُلُّ عَلَى الرِّضَا وَالْإِيمَانِ ، فَأَيُّهُمْ تَقْصِدِينَ ؟ !
فَقَالَتْ الْوَرْدُ فِي الْأَكْخَامِ : أَنْتَظِرِي حَتَّى أَشِيرَ لَكَ عَلَيْهِ .

وَكَانَتْ يَبْدُوهَا زَهْرَةٌ تَتَسَلَّى بِشَمِّ رَأْتِهَا فَأَلْقَتْهَا إِلَى نَاحِيَّتِهِ ، فَسَقَطَتْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَرَأَاهَا الشَّابُّ وَهِيَ تَسْقُطُ ، فَرَفَعَ بَصَرَهُ بِنَظَرَةٍ خَاطِفَةٍ يَتَطَلَّعُ إِلَى مَصْدَرِهَا ، فَلَمَحَ الْوَرْدُ فِي الْأَكْخَامِ وَقَهْرْمَانَتَهَا تَتَكَلَّمَانِ مَعًا ، وَتَنْظُرَانِ إِلَيْهِ ، فَعَلِمَ أَنَّهُ مَوْضُوعُ حَدِيثِهِمَا .

فَاخْتَلَسَ نَظْرَةً إِلَى الشَّرْفَةِ ، فَرَاَعَهُ مَا عَلَيْهِ الْوَرْدُ فِي الْأَكْخَامِ مِنْ جَمَالِ خَلَابٍ ، وَحُسْنِ بَاهِرٍ ، وَنَظَرٍ سَاحِرٍ .

وَكَانَتْ نَظْرَةً . لَمْ يَسْتَطِعْ بَعْدَهَا أَنْ يُغْضَّ مِنْ بَصَرِهِ ، أَوْ أَنْ يَتَحَكَّمَ فِي قَلْبِهِ الَّذِي اشْتَدَّتْ خَفَقَاتُهُ ، وَتَتَابَعَتْ ضَرْبَاتُهُ تَتَابُعًا سَرِيعًا .

وَكَانَتْ الْقَهْرْمَانَةُ حِينَئِذٍ تَقُولُ لِلْوَرْدِ فِي الْأَكْخَامِ :

هَذَا الشَّابُّ يَا بِنْتِي اسْمُهُ الْوَسِيمُ الْوَجُودُ ، وَهُوَ مِنْ أَصْفِيَاءِ الْمَلِكِ وَخُلَصَائِهِ الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ يُحِبُّهُ وَيُؤَثِّرُهُ لِحَسَنِ شِمَائِلِهِ ، وَدِمَائَةِ خُلُقِهِ ،



وَوَدَّاعَتَهُ وَرَقَتَهُ ، وَخَلَابَةَ حَدِيثِهِ ، وَسَعَةَ أَفْقِهِ ، وَغَزَاةَ عِلْمِهِ ، وَطِيبَ
عُنْصُرِهِ .

والتقتُ عينا الورد في الأكام بعيني أنس الوجود ، فقرأتُ في عينيه
فرط إعجابه بها ، وعرفتُ من الابتسامة الخفيفة التي رفَّتْ على شفثيه
حين التقتُ عيناها سرعة شعوره ، وتأثره بها .

فاضطربتُ ، وعلا خديها حمرة الحياء ، ورجفَ قلبها رجفةً ما كانت
تتوقعها ، وارتعشتْ يدها ، نخشيتُ أن يلمَحَ أحدٌ تلك الحالة النفسية
التي فاجأتها ، فأسدلتُ نقابها على وجهها حياءً وخجلاً .

أما أنسُ الوجود فقد ارتسمت على وجهه صورٌ متباينةٌ لشتى
الانفعالات والمشاعر التي اعتَمَلَتْ في نفسه ، فقد غَضَّ من بصره حياءً
وخجلاً ، وحاول أن يُخفي ما أَلَمَّ به في نفسه وفي قلبه عن رُفَقَائِهِ حتى
لا يَفْطِنُوا لَهُ .

ولم تستطعُ الوردُ في الأكام أن تتبَعَ المباراة ، واختلط أمام ناظرَيْها
الغادي بالرأح ، ولم تعرفُ من انخزل أو من ظفر .

أضحت الساحة أمامها كخلية نحل شاغية لا غطة ، اختلط فيها الحابل
بالنابل ، لا يُميِّزُ فيها وجه ، ولا يُفهمُ فيها لَفْظٌ ، ولم تر إلا وجه أس الوجود
ولم تفهم إلا اسمه .

ثم رُوِيْدًا رُوِيْدًا نُحِيت من أمامها جميعُ هذه المراتيات ، وطُمِسَ من
سَمْعِها صوتُ المِثاقَاتِ والنداءات ، وأصبحتْ هذه الساحةُ الصاخبةُ

العاجّة بالضجيج أمام عينيها يبداء مُقفرة يتوسطها علمٌ زاهٍ رَفَافٌ يجذب
ناظر إليها إليه على الرغم منها . وحتى لا ينكشف أمرها لم تجذ بُدًا من أن
تنسحب من مقصورتها وتغادر الحفل .

أما أنس الوجود الذي كان يضطرم قلبه اضطراما ، ويضطربُ
اضطرابًا لا شعوريًا عجيبًا فإنه فقدَ اتزانَ أعصابه ، والسيطرة على
نفسه ، أحسَّ أنه نهبٌ لأنظار كلِّ من حوله ، فقد ظلَّ قائمًا في مكانه ،
ولم يستطع الانسحاب كما فعلت الوردُ في الأكام .

وأسرعت الوردُ في الأكام إلى مخدعها .

يا لله ! ! ماذا أصابها ؟ ! وما الذي دهاها وغير منها ؟ ! ما لقلبها
خافق ؟ ! وما لفتاؤها واجف ؟ ! وما لجسدها يضطرب ويختلج ؟ !
أهي مريضة ؟ ! أم هي مغرورة ؟ ! أم هي خائفة ؟ !

ما هي بمريضة رغم ما تشعر به من وهن ، وما هي بمغرورة رغم ما
انتابها من ارتجاف ، وإنما هي خائفة ! الخائفة لما ألم بها ، ووجلة مما اغتراها .
دلفت إلى حجرتها لتمسح بين جدرانها ما نزل بها ، وتخفى بين أستارها
حيرتها وقلقها ، ولكنها لم تستطع أن تمسح شيئًا ، أو تستر شيئًا .

استلقت الوردُ في الأكام على سريرها لحظاتٍ ، ولكنها لم تلبث
أن مدّت يدها إلى ورقة وقلم ، وبثت ما بها إلى تلك الورقة ، وسطّرتُه في
كلام بليغ ، ثم طوت الورقة وخبأتها ؛ ومن بين أستار الحُجرة لحظت
قهرمانتها أشجانها ، ورأت ما فعلت .

كانت الوردُ في الأكام قد شكت إلى الورقة ما انتابها، وسطرتُ
بها ما شعرتُ به وما أحسَّته، ثم ما خافت وما خشيت، ثم ما ودَّت
وما تمنَّت.

وغلَبها النومُ بعد الأرق، فما استسلمت لسلطانهِ حتى اقتحمت
عليها الحجرةُ في خطأً وثيدةٍ قهرمانتها، ومدَّت يدها إلى الورقةِ
وأخذتها، وكان لها إلمامٌ بالقراءة، فاستطاعت أن تفهم ما كتبت،
وتعرف ما طوت وما أخفت.

فلما استيقظت الوردُ في الأكام قالت لها القهرمانة :
ما بك يا بُنيَّتِي، إني أراكِ ذابلةً متغيِّرةً ؟
أجابت الوردُ في الأكام : ليس بي غيرُ وعَكَةٍ خفيفةٍ، سرعانَ
ما تزول، وأَكُونُ عما قليلٍ بخيرٍ وعافية .
ولكن المرأة أعادتُ عليها السؤالَ وقالت :

يا سيِّدَتِي ؛ لا تكتُمِي عليَّ ما بك، بل بُوحِي لي بما يُحزِّنُكَ أخففْ
عنكِ، واشْرَحِي لي ما يُضايِقُكَ أعملْ على مُساعدَتِكَ، فلعلَّ اللهَ يجعلُ
بعدَ عُسرٍ يُسرًا، ويُخرجنا من الضيقِ إلى سَعَةٍ؛ وإنَّ انطواءكِ على
نفسِكَ، ومُبالَغَتِكَ في الكتمانِ — يُحرِّقُ صدركِ ويورِّقُ جَفَنَكَ .
وأعملت الوردُ في الأكام فكرها، أتبوحُ لها بما في نفسها ؟!
وما وجَلُّها إلَّا أن يَعْرِفَ ! أتشرحُ لها ما يُضايِقُها ؟! وما خشيتها
إلا إذاعته !

لا ؛ لن تبوح ، ولن تشرح ؛ لأنها إذا ضاق صدرها عن سرها ،
وتنفست جوانحها عن مكنون أمرها — عرضت نفسها لأقوال المرجفين
وشماتة الحاسدين ، وطبيعة نشأتها تمنعها ، وتريتها تنهاها ، وأخلاقها
تأمرها بكتمان أمرها ، وقبر أمانها ، فليس لها أن ترجو مساعدة ،
ولا أن تأمل في معونة من أحد .

فقلت : لا ، ليس بي ما أشكو ، وليس عندي ما أشرح .

ولما رأت القهر مائة أن الورد في الأكام مصرة على ألا تبوح
بشيء من سرها احتالت عليها ، فقلت : ياسيّدتي إنني ما قلت لك
ما قلت إلا لظني أنك في حاجة إلى من يساعذك ، ويأخذ بيدك ،
ليُخرجك من محنة وقعت فيها ، فقد رأيت الليلة في المنام رجلاً يقول :
إن سيّدتك الورد في الأكام غارقة في كُجّة من الحيرة واليأس
والقلق ؛ فعليك أن تأخذي بيدها وتساعديها ، وتضمّدي جراحها ،
وتعملي على أن تخرجي بها إلى بر الراحة والأمان ، وذلك لا يكون إلا
إذا تزوّجت من أنس الوجود . وأوصاني بالسهر عليك وصون سرك .
وقد اعتدت ياسيّدتي أن تكون رؤياي صحيحة ، فليست أضغاث أحلام ،
يؤوّلها المؤوّلون ، ويعبّرها المعبّرون ، ولكنها رؤيا النفس الشفافة
الوضيئة الطاهرة ، التي تحب سيّدها ، وتخلص لها ، وتقف حياتها
لخدمتها ، وتوفير أسباب السعادة لها ، وروحي مقترنة بروحك ، تحس
ما تحسّين ، وتشعر بما تشعرين ، فأنا لك ، فلا عليك إن أطمعتني ، ولا على

إن دَبَّرْتُ لك ما يُسَعِدُكَ ؛ ففي سعادتك سعادتي ، وفي راحتك راحتي
ورؤياي صادقةٌ ، لأنها من تخاطب الأرواح ، وتقارب القلوب والنفوس .
فقرَّ قلب الوردِ في الأكام فرحٌ غامرٌ ، وفاضَ فؤادُها راحةً
وسكينة .

فأسندت رأسها إلى يديها ، وأنغمضت عينيها ، وسبحت بخيالها في
حُلُم يقظةٍ تستعرض فيه نتيجة حُلُم قهرماتها ، فشعرت براحةٍ ،
وأحسَّت برِّدَ السعادة ، وأثلج صدرها فرحٌ وسرورٌ ، وثهدت تهتدةً
تيم عن اطمئنان وارتياحٍ ، وطفرت من عينيها دَمعة أحسَّت برِّدَها
على صدرها ، وبدأ الأملُ يَنفَسِحُ أمامها ، وأحسَّت نوراً يضيء الرحبَ
الواسعَ أمامها ، فغلبت عليها ابتسامةٌ خفيفةٌ فاترةٌ ، حاولت أن تخفيها ،
فلم تستطع .

وبعدَ لحظاتٍ انتهت من حُلُمها اليقظان اللذيد فوقفَت سبحاتُ
خيالها ، وعادت إلى الحقيقة ، وقاومت غواياتِ نفسها راجعةً إلى الجِدِّ
والعقل والرَّشاد ، وقالت للقهرمانَة :

ما رأيته في منامِك ليسَ إلا أضغاث أحلامٍ ، وإذا كنت كما تزعمين
ترينَ في المنام ما يقعُ في اليقظة ، فقد يخطئُ ملائِكُ مرَّةً ، أو يغلبهُ
عليك شيطانُك ، فتكون هذه الرؤيا التي رأيتها من خطأٍ ملائِكٍ أو
من رؤى شيطانك ؛ ومع ذلك فإنها إن كانت صحيحةً فكيف الوصول
إلى تحقيقها ؛ واعلمي أنك لن تعرفي من أمرى شيئاً ، ولن تقفي منى على شيء

مما تظنين ، فإنني إن طاوَعْتَنِي طَافَقْتِي غَلَبَنِي عَقْلِي ؛ هَوْنِي عَلَيْكَ ،
والله معنا .

لم يُعْجِبِ الْقَهْرْمَانَةُ شِدَّةَ حَرْصِهَا عَلَى كِتْمَانِ أَمْرِهَا عَنْهَا ، وَأَرَادَتْ
أَنْ تُوَاجِهَا بِمَا عَلِمَتْ ، وَرَأَتْ أَنْ مِنْ مَصْلَحَتِهَا أَنْ تَعْرِضَ أَمْرَهَا عَلَيْهَا
فِي صِرَاحَةٍ كَيْ تَفَكَّرَ مَعَهَا ، وَتُعِينَهَا عَلَى أَنْ تُيسِّرَ لَهَا مَا تَرِيدُ ؛ فَقَالَتْ :
لِنَقْضِ عَلَى تَرَدُّدِ الْوَرْدِ فِي الْأَكْثَامِ فِي التَّصْرِيحِ لَهَا بِسَرِّهَا ، وَقَدْ
فُطِنْتُ إِلَى مَا تَعَانِيهِ مِنْ صِرَاعٍ بَيْنَ قَلْبِهَا وَعَقْلِهَا ، وَوَجَّهْتُ إِلَيْهَا كَلَامَهَا :
يَا بُنَيَّتِي مَا عَلَيْكَ حَرْجٌ . فَأَنَا كَفِيلَةٌ بِرِعَايَتِكَ وَحِمَايَتِكَ صَنِيعَةً بِسَرِّكَ ،
آخِذَةً عَلَى عَاتِقِي تَحْقِيقَ مَا رَأَيْتُهُ لَكَ .

فَقَالَتْ الْوَرْدُ فِي الْأَكْثَامِ :

هَبِي أَنْ مَا تَرِيدِينَ مَعْرِفَتَهُ مِنِّي كَانَ صَحِيحًا ، وَأَنْ مَا تَقُولِينَ كَانَ
حَقًّا ، فَمَا الَّذِي تَوَدِّينَ أَنْ تَفْعَلِي ؟

فَقَالَتْ الْقَهْرْمَانَةُ ، وَقَدْ سَرَّهَا أَنْ الْوَرْدُ فِي الْأَكْثَامِ قَدْ ابْتَدَأَ يَتَحَلَّلَ
تَجَلُّدُهَا ، وَيَلِينُ عِنَادُهَا .

يَا سَيِّدَتِي سَأْمَهُدُ الطَّرِيقَ لِذَلِكَ ، وَسَتَعْرِفِينَ عَمَّا قَرِيبَ أَنَّكَ وَكَلِمَتُ
أَمْرِكَ إِلَى أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْكَ ، وَأَعْطَفَهُمْ عَلَيْكَ ، وَأَبْرَّاهُمْ بِكَ ، وَأَكْتَمَهُمْ
لَأَمْرِكَ ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى تَدْيِيرِ الْحِيلَةِ الشَّرِيفَةِ لِإِنْجَاحِكَ ؛ فَطِيبِي نَفْسًا ،
وَقَرِّي عَيْنًا ، وَاهْدَأِي بِالْأَمْرِ ، وَلَا تَبْتَسِي وَلَا تَحْزَنِي ، وَلَا تَسْتَسْلِمِي
لِلْوَسَاوِسِ وَالْأَوْهَامِ ، وَاعْتَمِدِي عَلَى اللَّهِ .

فقالت الوردُ في الأكمام ، وهي تتضاجعُ في فراشها ، وتحنى وجهها
بين وسائده ، وتتأبُّ وتتمطَّى ، مظهرةً عدمَ المبالاة والاكتراث
بما تحدث به القهرمانةُ :

افعلِ ما يدا لك ، وسيرى فيما ترين ، على الوجه الذى يرؤوك .
قهضت القهرمانة من لدنها فرحةً منتصرةً ، تُخفى نفسها من وراء
ما ستقدمُ عليه الخيرَ الجزيل .

(٢)

استقبلَ أنسُ الوجودِ المرأةَ التى استأذنت في الدخول عليه ، وهو
دهشٌ ، فمن تكونُ هذه المرأة ؟ وما حاجتها ؟ وما دفعها إلى
الاستئذان عليه في هذا الوقت ؟

وقال لها : يا سيّدى ؛ من تكونين ؟ وماذا تريدن ؟
قالت : يا سيّدى ؛ هل نحن فى خلوة لا يسمعون أحد ؟
قال ، وقد ازداد دهشةً : نعم ، لك أن تفصحى عما تريدن ، تحدثنى
يا سيّدى بما تشائين ، فليس أحدٌ يسمعُ حديثنا .
قالت باسمّةً : ألم تعرفنى ؟

قال ، بعد أن تطلّع إليها ولم يسعفه ذهنه فى تذكرها : يا سيّدى
اغفري لى إن كنتُ رأيتك ولم أتذكّر ، فإنى سريعُ النسيان ،
لا تعلقُ بذهنى صورُ الوجوهِ لمجرّدِ الرؤية السريعة العاجلة التى تخطفها

خطفًا ؛ فاعلى أكونُ رأيتكِ مرَّةً ، ووقعتُ عيني عليكِ موقعًا سريعًا
خاطفًا ، فظننتُ أنى ملأتُ عيني منك ، وما ملأئُها ؛ وظننتُ أنى
رسمتُ لكِ صورةً فى ذهنى ، وما رسمتها ، وليس ذلك عن قصد ، ولكن
هكذا أنا ، فغفواً يا سيِّدتى .

فقامت المرأةُ ، وهى تضحك : حسبتُ أنك لا تنسى هكذا سريعاً ،
فقد رأيتنى فقط بالأمس .

قال وهو يُحاولُ أن يتذكَّر أين وقعَ نظره عليها : ساعدينى
يا سيِّدتى على تذكُّركِ ، وأين رأيتكِ ؟

قالت : رأيتنى ، وملأتُ نظركِ وقلبك ؛ ألم تذكر بعد ؟ !
قال ، وهو يستعجبُ ، ويكاد يضربُ كفًا على كفٍّ : أين
يا سيِّدتى ؟ !

قالت : رأيتنى مع سيِّدتى فى شرفها المطلة على ساحة اللعب ، وجعلتُ
تفرسُ فينا ، ولا تغضُ نظركِ عنَّا ، مما أخرجَ سيِّدتى ، ودفعها على أن
تنسحب قبل نهاية اللعب .

طفر الدمُ إلى وجهِ أنسِ الوجود ، واحمر استمراراً شديداً ، واضطربَ
اضطراباً ، وكأنه قد عصفَ به فجأةً عاصفٌ عنيفٌ ، وتهدجَ صوته ،
وتلثمَ لسانه ، وأخذ يقول :

إبنى آسفٌ . . آسفٌ لما سببتُ لسيدتكِ من حرج عن غير قصدٍ . فهل
هى غاضبة على ؟ ! وهل أتيتُ أنتِ من أجل ذلك ؟ ! بلغنيها أننى أعتذر ،

واطلبي لى منها العفو والمغفرة .

فقات القهرمانة التى لم يفتها أن تلحظ مبلغ اضطرابه وتلعثبه ،
وتفهم من ذلك ما أرادت أن تعرفَ عن اتجاه عواطفه :
إن سيدتى لم تُكلفنى الحضور إليك ، فلا أستطيعُ إبلاغها رسالتك ،
وإنما أنا التى أتيتُ من تلقاء نفسى .
فقال بلهفة :

وهل هى غاضبةٌ على ؛ سأخِطة لما حدث مِنى ؟
قالت :

لا أعلمُ إن كانت غاضبةٌ أو راضيةٌ ، فهى لم تصرِّحْ لى بشيءٍ من هذا .
قال :

إذن ما سببُ حضوركِ إلىّ إن لم تكن غاضبةٌ على ؟
قالت :

إننى لم أفلِ إنها ليست غاضبةٌ ، بل قلتُ إنها لم تصرِّحْ لى بشيءٍ
من هذا .

فظهرت على وجهِ أنس الوجود علامات الحيرة والقلق وقال ،
للقهرمانة : إذن هل هناك سببٌ آخر ؟
قالت : نعم .

قال ، وقد خفق قلبه ، وقوى لديه الأملُ الذى كان يداعبُ خيالهُ
طولَ يومه ، ويحاول أن يقصيه بعيداً عنه دون جدوى :

وما هو ؟ !

قالت : إني أنا الغاضبة الدائرة الساخطة .

فظهرت على وجه أنس الوجود علامات الامتعاض ، وخيبة الأمل ،
جائئة واضحة ، ومال برأسه نحو صدره متخاذلاً ، وتمم قائلاً :

وعلام غضبك وثورتك وسخطك أنت ؟ !

قالت : من أجل سيدتي ، فهي من وقت أن غادرت الشرفة ، وهي
معتكفة بفراشها .

فرفع أنس الوجود رأسه ، ونظر إلى القهرمانة ، وقد أحيا ذكر
سيدتها الأمل في قلبه ، وقال مقاطعاً :

أمرضة هي ؟ !

قالت : لا . ولكنها ساهمة واجمة ، ولا أدري ما بها ، وذلك مادعاني
أن آتي إليك عائدة باللوم عليك ، فهو أنت الذي كنت سبباً فيما طرأ
عليها ، وأذهبت عنها بشاشتها وبهجتها ، ومسح عن شفتيها ابتسامة
ما كانت تفارقها ، وأذبل عينيها الساحرتين ، وكسر أجفانهما ، وخيم على
حجرتها سكون عميق طويل لا ندرى متى ينتهي .

فتفرس أنس الوجود في وجه القهرمانة متفحصاً يسبر غورها ، ثم
قال يحاول اكتساب مودتها :

إنك فيما يبدو لي وفية مخلصنة لسيدتك ، ويهكم جداً راحتها
وهؤلاءها

قالت تجاريه :

إني لا بُغية لي من الدنيا إلا أن أرى الرُواء يكسو وجهها ، والا بتسامة
تزين شفتيها .

قال : ما أطيب قلبك ! ألا تشمليني أنا أيضاً بيمض بركٍ وعطفك ،
وترضين عني ؟

قالت وهي تبسم :

يا سيدي لا بأس عليك .

قال : إني لأطمع منك في أكثر من ذلك ؛ أريد أن تصنعى معي
معروفاً ، وتُسدي إليَّ يداً .

قالت : إني أرحب بأي عمل يمكنني أن أقدمه لك .

قال : هل أبوح لكِ بدخيلة نفسي ، وأكشفُ لك سري ، معتمداً
عليكِ في مساعدتي ؟ !

أجابت : هاتِ ما عندك يا بني ، ففي الحفظِ والصون سرّك ،
وسأساعدك ما دامت المساعدة في مقدوري وإمكانى .

قال : المساعدة في إمكانك لو أردت ، ولكنني أخاف أن تردّيني ،
أو لا تفلحي في مسعاك إن سمعت ، فيكون في ذلك شقائي .

قالت القهرمانة مظهرةً الارتياحَ لقوله :

حفظك الله يا سيدي من كُلِّ سوءٍ ، أفض إليّ بمتاعبك ، واطرح عليّ

مخاوفك ؛ وثق أنى سأعمل جاهدة على راحتك ، وإبعاد كل شر يمكن أن يحيق بك .

قال : ياسيدتى ، إن سهماً نافذا قد أصاب صدرى ، واستقرّ في قاي حين أبصرتُ سيدتك ؛ وأنا الآن جريحٌ معذبٌ ، وما شفاء جراحي إلا بيدها ، ولا مُضِيعَ لعذابى إلا رضاها ، وقد أراد الله لى الرحمة إذ ساقك إلى ، فالطريق إليها لا يكون إلا بعد إرشادك ، فها أنت ترين أن مفتاحها فى قبضتك ، وحلها فى يدك .

فتصنعت القهر مائة الوجوم والدهشة والخيرة ، وبعد برهة قضتها فى تفكير خالها أنس الوجود دهرًا طويلا ، وعيناهُ عالقتان بشفتيها ، متلهفا إلى ما تنطق بهما ، وهل يكون حياة له أو موتا .
تمت قائلة ، وكأنها تخاطب نفسها :

وأيمُ الحق ، إن الورد فى الأكام هى زينة النساء ، ولا يليق لها غير أنس الوجود سيد الشباب .

فبشت أسارى أنس الوجود وأمل خيرا من وراء ذلك .

واستطردت المرأة تقول له بصوتٍ أكثر ارتفاعا :

يا سيدى : إن أمنيتك هذه صعبة المنال ، ولكنى سأعملُ جهدى من أجلك كما وعدتك ، فأبذل فى إقناع سيدتى كل ما أستطيعه من بذل ، وأحتالُ لذلك بشتى الطرق ، وأغريها بأنواع المفريات ، وأصفُ لها محاسنك ، وأسرُد لها صفاتك ، وأحكى لها أنباء شجاعتك ونخوتك

ورجولتك ، حتى إذا رأيتُ الطريقَ ممهداً سررتُ فيه رُويدا رُويدا نحو هدفك ؛ فما رأيك في خطتي هذه التي سأسلكها لأجلك عن طيب خاطر ؟ .

قال فرحاً مستبشراً :

ونعم الخطّة ، وبإذن الله بفضل مهارتك ودرايتك وحرصك وذكائك سَتُكَلِّلُ بالنجاح ، وحينئذ أَكافئُك أَنَا بكلِّ ما تشتهين ، وأهبُّ لك كلَّ ما تُحبِّين .

وشفعَ كلامه بأن أخرج من مِنطقتَه كيسَ نقودٍ وقدمه للقهرمانة ، وهو يقول :

خُذِي هذه هدية صغيرةً مِنِّي الآن ، ستعقبُها أخرى أَنفس منها إن شاء الله .

فتمنعتُ القهرمانة ، ولم تمد يدها إلى الكيس ، وقالت :

يا سيِّدِي ؛ إن بُعِثَتِ الوحيدة التي أبتغيها هي راحتك وهناءة سيِّدَتِي .
والرأى عِنْدِي أَن تَكْتُبَ لها كلمة تضمَّنُها حالُك ، وتشرحُ فيها بُعِيتَكَ ،
وتُبَيِّنُها إعجابك بها ، وتقديرَك لجمالها ، وتصف ما فعله جمالها في نفسك ،
وما أحدثه سَهْمُ نظراتها في قلبك ، حين وقع عليها نظرك ، ثم ما أصابك
من الشرود والسُّموم عند ما فزَعَتْ في مقصورتها ، وانصرفت . فإنها
انترَعَتْ معها قلبك ، وجرى في أثرها عقلُك وخيالك ، فلم يَأْجِدْ فرصة
مناسبة أقدمُ لها فيها الخطاب ، بعد أن أشبعَها حديثاً عنك وأهَيَّ قلبها لك

قال : ها هي رسالة كتبتها قبل أن أراك ، وديجتها قبل أن أعلم أنه سيأتي إلي من يساعدي على تحقيق حلمي ، رسالة سكبت فيها ذوب نفسي ، وحططت بها من عصارة مهجتي .

وأخرج من بين طيات ملابسه التي تُلصق صدره رسالة مطوية ، قبلها ، ثم أعطاها للقهرمانة مع نفحة النقود التي نفحها إيّاها . فأخذتهما منه المرأة ، ودسّتهما في صدرها ، وهي تقول : اعتمد علىّ بعد الله فستنال ما تريد .

فقال وهو يضحك مسروراً :

إنني لا أشك في مقدرتك ، وأوصيك أن تحافظي على الرسالة ، ولا تدعيها تقع في يدٍ أخرى فتسوء العاقبة ، ونجازي بما نكره . فقالت وهي تستدير للانصراف :

قلت لك اعتمد علىّ بعد الله ، فلا تخف ، وارجُ خيراً ، ولا تستعجل ، فقد يكون مع المستعجل الزلل ، والإبطاء مع انتهاز الفرصة المواتية خير من العجلة التي قد تُنتج شرّاً ، ومع ذلك فاعلّ الفرصة تُسعفيني على عجل ، وسأوافيك بما يتم .

(٣)

وانصرفت القهرمانة من منزل أنس الوجود فرحة مغتبطة بتوفيقها . وأنس الوجود يشيعها بنظراته ، متمنياً أن تعود على عجل ، تحمل إليه

أخباراً سارة تشرح صدره وتُبهج نفسه .

وبادرت القهرمانة حين دخولها عليها بقولها :

ياسيدتي ، إنَّ لديه لك أضغافٌ ما عندك له .

فقال الورد في الأكام تتجاهل :

عمن تتكلمين ؟

أجابت القهرمانة : عن صَبِّ مُدَلَّه ، ومُتَيِّمٍ مَفْتُون .

قالت الورد في الأكام ، وهي تخفى اضطرابها ، ولكنَّ احمرار وجهها

ينم عما تمناه : من تعنين ؟ !

قالت القهرمانة :

أعنى أنس الوجود : نخر الشباب ، وزينة الرجال .

قالت الورد في الأكام بصوت يهدج :

وما باله ؟ !

قالت : أصابه سهمٌ نافذٌ من سهامِك ، لانهجاة له منه إلا أن تتداركه

ياسعافٍ سريعٍ منك .

فاتخذت الورد في الأكام هيئة الغضبانة ، وقالت :

ما الذي تقصدين بهذا الكلام ؟

أجابت القهرمانة ، وهي تبسم ، وتربت على كتفها :

أقصد أن أجمع بينكما ، وأربط بين قلبيكما ، وأراكما سعيدين

هاتين فأسعد بسعادتكما ، وأهنا بهناءتكما .

هدأت الورد في الأكمام ، وبدأ يتوارى عجبها ، وتُخفي دهشتها ،
 وظهر عليها أنها تستجيب لمواطفتها ، نَفَّت حَدَّةَ كلامها : وقالت . هل
 رأيته ، وجالسته ، وتحدثت إليه ، وتحدثت إليك ، وسمعت منه ؟
 قالت : نعم ؛ رأيته ، وجالسته ، وتحدثت إليه ، وتحدثت إلى ،
 وسمع مني ، وسمعت منه .

استوت الورد في الأكمام جالسةً ، وصارت كلُّ ذرّة من ذرّات
 جسمها أذنًا رقيقةً تسمع وتعي ، وقالت :
 بم حَدِّثته ؟ وبم حَدِّثْكَ ؟ قُصِّي على ما جرى بينكما ؛ وبالله عليك
 لا تُخفي عني شيئًا .

قالت القهرمانة : لقد أغناني ذكرى له أننى قهرمانتك عن كلِّ قولٍ ،
 أمّا هوفانه ما كادَ يعرفُ ذلك حتى الآنَ القولَ طلبًا لمطفي ، وتدرّجَ
 في الحديث حتى طلبَ مني مساعدتي له على نيلِ عطفِكَ ، ثم أخرجَ
 هذا الكتابَ حيث كان يضعه ملاصقًا لصدرة ، وأعطاني إيّاه ،
 لأعطيه لك ، فهالك هو .

وناولت القهرمانة المكتوبَ للورد في الأكمام ، وهى تهمس لها :
 تَكْرَمِي عليه يا بُنَيَّتِي بكلمةٍ يستردُّ بها روحه الهائِة ، وعقله الشارد ،
 فقد تيمّته ، وسَحَرْتِه ، ومَلَكْتِ عليه قلبه وعقله ، فارحمي شبابَه الغض ،
 وقلبه الولّهان ، ثم تركتها وانصرفت .

ونشرت الوردُ في الأكمام الكتابَ بيدٍ ترتعش ، وشرعت تقرأ

ما جاء فيه ، وكما مرّت على سطرٍ منه ازدادت يدها ارتعاشاً وقلبها خفقاناً .
قرأت كلماتٍ من وحي القلب والروح ، كلماتٍ عرفتُ منها مبلغ
هُيام كاتبها ، وشدة تباريح الهوى به ، قرأتُ فيها أقصوصةَ حُبٍّ
عنيفٍ ، يشتعل في القلب ناراً ، ورأتُ فيها شواظَ نفسٍ مستعرةٍ ، معذبة
تبغى الراحة وتطلب القرار .

ورفعتِ الوردُ في الأكام الكتابَ إلى شفّتها فلثمتهُ ، والدُموع
تنحدرُ من عينيها ، وتحاولُ أن تُكفكفَ الدمعَ خشية أن تراها
القهرمانة ، ولكنها طمأنت نفسها ، وقالت لافائدة في الإخفاء ، فإنها
أصبحت تعرفُ كلَّ شيءٍ ، فهي التي تواسيني وتسليني ، وتوجّعُ لي ،
وتعيّزني ؛ لا بأسَ ، إنها مُخلصةٌ وفيّة .

ولما أتتِ القهرمانة بعد قليل تنشدُ الرّدَّ ، دسّت الوردُ في الأكام
يدها تحت وسادتها وأخرجت إليها الكتابَ الذي كانت قد كتبتهُ من
قبلُ ، تُسطرُ فيه رُوحها ، وتنفسُ عن نفسها ، قبل أن يأتيا كتابُ
أنسِ الوجود ، وقبل أن تعرف شيئاً عن حُبِّها لها — فيما تزعم —
ودفعتهُ إليها .

حملتِ القهرمانة الخطاب ، وأسرعت إلى أنس الوجود ، ودفعتهُ إليه ،
ففضضه في لفحة ، وجرت عينه بين سطوره تعبرُها عبّراً ؛ فكان لهذا
الخطاب في نفسِ أنس الوجود فعلٌ فاق فعل السحر ، أحسَّ بنشوة
الفرح والسرورِ تسرى في جسمه ، فتستخفه وتنعشه ، وشعرَ أنه قد

غدا أسعدَ إنسان ، وأنه قد خلقَ خلقاً جديداً ، وبدأت الدنيا من حوله
حُلوةً بهجةً ، كلُّ شَيْءٍ فيها جميلٌ ، وكأنما كلُّ شَيْءٍ يشاركه في سُروره :
فتغريدُ الطير ، وحفيفُ الشجر ، وخرير الماء أغاريدُ وترنياتٌ عذبةٌ ،
تعبرُ بها الطبيعةُ عن احتفالها بأنسه وسروره ، وتفتُحُ الزهر ، وتراقصُ
الأغصان ، وتبخترُ النسيم ، وتواثبُ العصافير على الأفنان — ابتهاجٌ
بما أتاح الله له من حظٍّ سعيد خيّل له أن هذا كله ليس إلاّ له ، ولم
يخلقه الله إلا من أجل حُبّه .

وفي فورة هذه الرُّوح كتب إليها ردّاً يفيض حُبّاً ، كله أملٌ ، وكلُّه
تصويرٌ لما يتوقعُ لنفسه من سعادةٍ ونعيم .

وحملت إليها القهرمانة هذا الردَّ فأثّر في نفسها كما أثّر خطابها في
نفسه ، وتصوّرت الدنيا بهجةً وجمالاً كما تصوّرها هو بهجةً وجمالاً ،
وكتبت إليه كتاباً ترُدُّ به على كتابه ، وحملته القهرمانة مسرعةً ، فاعترضَ
طريقها حارسُ باب الحريم ، وقال لها :

ما بالكِ في هذين اليومين تُكثرين من الدخول والخروج ، وألمَحُ
في وجهك شيئاً من الاضطراب الذي يدلُّ على شَيْءٍ خفي تكتمينه في
نفسك ، ومن حقِّ أن أعترض طريقك ، وأسألك .

فاضطربت المرأة ، وظننت أنه قد لحظ شيئاً أو ألمَّ بخبر ، فدست
في خفية من الحارس الخطاب الذي كان ييدها بسرعة بين طيات ملابسها ،
وقالت في تلعثم واضطرابٍ حاولت أن تخفيه :

إني قاصدةٌ إلى الحمام .

فلم يفتن الحارس إلى اضطرابها ، وإلى تلعثمها ، وأفسح لها الطريق ،
فما سارت إلا بضع خطواتٍ حتى انفلت الخطاب من بين ملابسها
وسقط على أرض البستان .

ومرَّ بعد ذلك واحدٌ من خدم الدار ، فرأى الخطاب فحمله مطوياً
إلى سيِّده الذي كان يتنزه في البستان قائلاً :

ياسيدي ، لقد وجدتُ هذه الورقةَ ملقاةً على الأرض .

فأخذها منه سيِّدُه الوزيرُ ، ونشرها ، وقرأها ، فأدرك ما جاء فيها ،
فتأمَّل الخطَّ الذي كتبت به ، فعرَّف فيه خطَّ ابنته ؛ فجَنَّ جُنُونُهُ ،
وأظلمت الدنيا أمامَ عينيه ، وضاعت على سِعتِها ، ودارت به الأرض
الفضاء ، وسخُنَ وجهُه ، وصعدت الدَّماءُ إلى رأسه ، وكان يتميَّزُ
من الغيظ ، وعَضَّ على نواجذه ، وزفرَ زَفْرَةً شديدةً ، اختلفت
لها أعضاؤه ، وكاد ينخلع منها قلبُه .

وبعدَ وقتٍ مَلَكَ نفسَه ، وتحامل عليها ، وأخذَ عصاً توكَّأَ عليها ،
وصعدَ إلى مخدَعِه ، محاولاً أن يخفي ذلك الأمرَ ، حتى لا يقف عليه أحد
من خدمِه وحشمِه ، ودخلت عليه زوجته ، فوجدت الدموعَ قد خدَّت
وجنَّتيه ، وغسلت لحيته ؛ فسألته جزِعةً مُرتاعةً :

ما بالكَ يا سيِّدي تبكي ؟ ما بك ؟ ! من مات من أحببنا ؟ ! ماذا

أصاب الدولة ؟ ! ما ذا دهمَ الملك ؟ !

فأشارَ لها إلى الخطاب وهو صامتٌ، فأخذته ، ونظرتُ فيه ،
 فعرفتُ فيه خطأَ ابنتها ، ونفذَ إلى أنفها شذىَ عطرها، فتوجَّستُ سرًّا ،
 وعرفتُ أنَّ في الأمر سرًّا ، ولما قرأتَه صدقَ حدسها ، وغلبها البكاء كما
 غلب زوجها ، ولكنها تجلّدت ، وكفكت دموعها ، وقالت لزوجها :

يا سيدي ، إن البكاء لا فائدة فيه ، ولا مغنم من ورائه . والرأى
 الصواب أن نَبَصِّرَ في أمرٍ يكونُ فيه الحفظُ لشرفنا ، والصونُ لكرامتنا ،
 وإنقاذُ ابنتنا مما توشك أن تقع فيه .

وأخذتُ تخفّفُ عنه حزنه ، وتسليّه بذكر الأحداث والعبر ، حتى
 سرّى عنه بعض ما به ، وقال لها :

إنَّ ما يحزنني أنْ يصدر هذا عن ابنتي ، التي ربيتها على الحُصَالِ
 الحميدة ، والسَّجَايا الطَّيِّبَةِ ، وتعهَّدها بخير ما يتعهَّدُ به أبٌ ولده .

قالت : لا تَبْتَنِّسْ ، فلَـكَلَّ جُرحُ علاجٍ ، ولَـكَلَّ مرضٍ دواء .
 قال وهو يهزُّ رأسه يائساً : إنها تراسل أنس الوجود ، فأين
 العلاجُ ؟ ، وما هو الدَّواءُ ؟ ! هي ابنتي ، وهو حبيبُ السلطان المقرب
 إليه ، الذي يؤلِّهُ بَعاده ، ولا صبر له على غيابه .

قالت : اصبر حتى أَتَوَضَّأَ ، وأُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ استِخَارَةً لِّلَّهِ ، وسِئْلَهُمَنِي
 الله الرأى الصواب .

ونَهَضتُ من فورها فتوضَّأتُ وصَلَّتُ ، ثم أتت لزوجها ، وقالت له :
 إن في وسط بحر الكنوز جبلاً يسمى جبل الشكلى ، وهذا الجبلُ

لا يصلُ إليه المرءُ إلا بعد تعب ومشقة ، فأقم لها مكانا هناك تقيم فيه ، وبذلك يُقطعُ ما بينها وبين أنس الوجود قطعاً ، ونأمن نحن على ابنتنا ، ونصون شرفنا وكرامتنا .

فسرَّ الوزيرُ من رأى امرأته ، وقضى الليل معها يرُسمان الخطط فيما يفعلان وينتهجان .

فلما أصبحَ الصباح جمع نفرًا كبيرًا من المهندسين والبنّائين والنَّجارين والعمال ، وانتقل إلى بحر الكنُوز ، ونقل معه كلَّ ما أعد ، واستقلَّ مركبًا مُحملاً بكلِّ ما يلزَمُ لصناعة البناء ، واتجهوا جميعاً إلى جبل الشكلى ، وقام العملُ على قَدَم وساق في بناء قصرٍ منيع فوق ربوة هذا الجبل الذى يحيط به البحر من جميع الجهات ، فما مضى إلا قليلٌ حتى كان القصر قد شُيِّد ، وأعدَّ بكلِّ ما يحتاج إليه المقيم فيه من أثاث ورياش ، واستعدَّ لاستقبال الفتاة التى ستنفى إليه .

أما الورد فى الأحكام فقد لازمتها أمها فى هذه الفترة ليلاً ونهاراً ، تراقبها وتحصى عليها حركاتها وترقب سكناتها ، إلى أن أتت ليلة الرحيل .

وكانت الورد فى الأحكام قد أحست أن أمرها قد كشف ، وقدَّرت أن أباهما سيحدثُ أمرا ، وأعدَّتْ نفسها لتلقى الخطوب والمحن .

فأما كانت الليلة التى حُدِّثتْ لترحيلها ، أتاها أبوها بعد أن مضى الهزيعُ الأوَّل من الليل ، وسكَّن الناسُ وأوَّأ إلى بيوتهم ، وأمرها أن تسير معه وتتبعه .

فتبعته حتى خرج بها من الدار ، فرأت أمام الباب الرّكائب والأحمال
مهياً للسّفر ، ورأت الخدم في هرج ومرج ، يذهبون ويحيئون ، ينفذون
أوامر سيدهم ، فعرفت أن المكان الذي ستحمّل إليه ناءً بعيداً ، ففاضت
الدموع من عينيها ، ثم انخرطت في بكاءٍ شديدٍ .

وسمعت صوت أبيها يصدر الأوامر متعجلاً نزول الجوارى والخدم
الذين سيرافقونها ، فاستندت إلى جدار الباب ، وخطت على حائطه أيّاماً
من الشعر الباكي الحزين تودّع فيها الحبيب والأهل والدار .

وسرعان ما تحملت الأحمال ، واتخذ المسافرون أمكنتهم ، وشدّت الرّحال .
وسارت هذه القافلة تُعذّ السّير في جوف الليل ، حتى إذا ما انبلج
نور الصّباح كانت تملو الكُشبان ، وتهبط الوديان ، في صحراء قاحلة جدباء
لا زرع فيها ولا ماء .

وأخيراً وصل الركب إلى بحر الكنوز ، فخطوا رحالهم ، ونصبوا
خيامهم ، وأنزلوا أمتعتهم ، واستراحوا ليلةً في مكانهم هذا حتى إذا كان
الصّباح استقلوا مركباً كان في انتظارهم وقصدوا إلى جبلٍ الشكلى الذى
شيد فوقه القصر .

فلما وصلوا إلى القصر استقبلهم نفرٌ من الحراس كانوا به ، وأدخلوا
الورد في الأكمام هى وجوارىها وخدمها إليه ، ثم كرّوا هم ومن أتى مع
الورد في الأكمام من حراس عائدين ، وعندما رسابهم المركب على اليابسة
أثناء أوّبتهم نزلوا منه ، وحطموه ، كما أمرهم الوزير ، ثم استأنفوا الرحيل
تذروب أنفسهم حسرة على ما فعلوه .

ودخلت الورد في الأكام القصر فوجدته رائع البناء ، جميل
التنسيق ، إلا أنها لم تُلَقِ بالآ إلى ذلك كله فقد كانت منصرفه إلى أحزانها
وأشجانها مُستسلمة لهما الذي بدأ يُحطّم قلبها .

(٤)

أما أنس الوجود فإنه كان قد علم بضياح الورقة ، لما أتت إليه
القهرمانة لتعطيها له فلم تجدها ، وظل بعد ذلك يترقب مجيئها ، أو يسمع
خبراً منها ولكنها لم تعد إليه ، فبدأ يُساوره القلق ، ويدخل
نفسه شيء .

فلما كان صباح يوم رحيل الورد في الأكام مرّ على قصر الوزير
كمادته في طريقه إلى قصر السلطان ، وأخذ يُردّد طرفه نحو البُستان
ويختلس النظرات نحو النوافذ والشرفات ، لعله يرى القهرمانة ، أو
يلمح الورد في الأكام أو يشتم رائحة خبر :

فلما حاذى الباب لمحت عينه الكتابة المخطوطة على حائطه ، فعرف
من فوزه فيها خطّ حبيبته الورد في الأكام ، فاقرب منها ، وقرأها ،
فعلم ما لم يكن يعلم .

علم أن يد النوى قد فرقت بينه وبين حبيبته ، وأن الشقة قد اتسعت
وأن المزار بعيد ، فتسمرت قدماهُ ، وظلّ شاخصاً بعينه إلى أبيات
الشعر التي خطتها له الورد في الأكام قبل رحيلها ، وهي تتراقص أمام

عينيه ، وقد جف ريقه ، وَوَجَفَ قلبه ، وزاغت عيناهُ ، وتخاذلات
قواه ، وشده عقله .

وفطنَ بعد وقتٍ ليسَ بالقصيرِ إلى حاله ، وإلى أنه موضع تهاؤس ،
وتعجب ، وتساؤل وارتياح ؛ فتحوّل يريدُ الانصرافَ ، فلم تطاوعه
قدمه ، فقد ثقلت واسترخت ، وكأنّها قد شدّت إلى الأرض بأمراس .
فجاهد حتى اقتلعها من الأرضِ اقتلاعاً ، وعاد يجرُ نفسه ثانياً إلى داره ،
حيث سقط منها الكأ ، كأنما أصابته غشية .

ولما أفاق قليلاً ، قرّر قراره على أن يقتفى أثر الوردِ في الأحكام
باحثاً عنها حتى يجدّها ، أو يلقى دُونها الموت .

فشدّد عزمه ، وشجّع نفسه ، وقوى قلبه ، ونهض يستعدُّ لهذا
الأمر .

وفي دُجى الليلِ تسلّلَ من داره متخفياً متنسكراً في زيٍّ غيرِ زيّه
فصار تنكّرهُ العينُ التي تعرفه .

وقضى الليلَ في سيرٍ متواصلٍ ؛ فلما أصبحَ الصبحُ كان قد قطعَ
مرحلةً واسعةً خارجَ المدينة ، وواصلَ السيرَ حتى اشتدَّ وهجُ الهجيرِ
عليه ، فدارَ بعينه يبحثُ عن ظلّةٍ يستظلُّ بها ، ويستريحُ فيها بعضَ
الوقتِ ، فلم تطالع عينه غيرَ صحراءٍ ورمالٍ تلهبها شمسٌ حاميةٌ محرقةٌ .

ولم يجد بُداً من أن يواصلَ سيره رغمَ تعبهِ وإجهاده ، وجُوعه
وعطشه حتى مالَ النهار ، وانحدرت الشمسُ ، وحينئذٍ تراءى أمامَ

عينيه اللتين أعشاهما بريقُ الشمسِ شىءٌ يتراقصُ ويعيلُ ويهتزُّ ، فيممُ نحوه فوجدهُ شجرةً وبضعِ نخلاتٍ يجرى بجانبها جدولُ ماءٍ ؛ فقال إلى الماءِ يطفئُ منه عطشه ، ولكنه لم يجد له في فيه طعاماً ، ولا في حلقه رِياً ، فأخرجَ شيئاً من الطعام القليل الذي يحمله معه ، فلم يجد له من نفسه قبولا ولا شهيةً .

وقضى جزءاً من الليل في هذا المكان ، ثم نهضَ يستأنفُ سيره تحت ستار الظلام الذي لا يُنيرُهُ له غيرُ بصيصِ ضئيلٍ من نور الكواكب والنجوم يهتدي به ، وشُعاع الأمل ينبعثُ من صدره فيخلعُ على نفسه صورةً من الإلهام مضطربةً ؛ إلا أن ضوءها يغلبُ على ظلامها .

انقضى الليلُ بظلامِهِ ووحشيته وأوهامِهِ ، واختفتِ النجومُ في خضمٍّ من نور الصباح ، وظهرت الشمسُ مشرقةً ، فأرشدته بنورها ، وأحيته بجزارتها ، ثم أصلته بعد ذلك شواطئاً ، ولفحته افحاً يسفعُ الوجه ، ويشوى الجلد ، ويصببُ العرق .

وبينما هو يُعاني الألم في قدميه ، والثقل في جسمه ، ووقدة الشمس فوق رأسه — إذ به وجهاً لوجه أمامَ أسدٍ ضارٍ ما رأت عينه أكبر منه ، ولا أوفر لبدةً ، ولا أبشعَ شكلاً ، ولا أأحدَ ولا أضرى .

وأيقن أنسُ الوجودِ أن الموتَ أدركه ، فلا نجاة منه ولا مفر ، ولا شجاعة تجديه ، ولا حيلة .

فوقف في مكانه ينظر إلى الأسدِ مُرتعداً خائفاً ، يترقبُ ونبته بين لحظة ولحظة ؛ والأسد ينظر إليه كأنه يتربص به ، ويتجمع للوثوب عليه ؛ ولما طال الوقتُ على أنس الوجود ، والأسدُ لا يتقدمُ للهجوم عليه وافتراسه ، سرى عنه بعض ما به من الخوف ، ومَلَكَ أعصابه ، وتنبهَ لنفسه ، وقال يُخاطبه :

تقدّم يا أبا الحارث ، فأرحني من عذابي ، وانتشلي من شقائي ؛ فإنك إن أنشبتَ مخالبك في قلبي ، ومكّنتَ لأنيابك من عُقّي — أرحّتنى من تلك الحياة المظلمة ، وخالصتني من حظ نكد بائس ؛ وأعلمي إن أمتُ أجد وراء هذه الحياة حياة أسعد وأزعد ، لا يظلم فيها أحدٌ أحداً ، ولا يعتدي أحدٌ على أحد ، وأعلمي إن أمتُ أجد وراء هذه الحياة حياة يحترم فيها بعضُ الناس بعضاً ، ويقدرُونَ عواطفهم ، فلا تحاسد ولا تباغض ، ولا تنافس في شرٍّ أو إلى شر .

تقدم يا أبا الحارث فأرحني من عذابي ، وانتشلي من شقائي .
وكم كان عجباً حين رأى أنس الوجود الأسد حين سمع كلامه أقنى ، ولم يتقدم نحوه ، ولم يهجم عليه ؛ فسكّاه فهم كلامه ، فرثى لحاله ، وجلس يتأمله .

فقال : أيا سبع الغابة ، ويا ليت العرين ؛ هل أجدُ الرحمة منك ، والأمان عندك بعد أن لم أجدهما من بني جنسي ؟
وازداد عجبُ أنس الوجود حين أبصر الأسد ينهض متمهلاً

وهو يُبْصِرُ بذنبه ، ثم يسيرُ أمامه وينظر إليه كأنه يطلب منه أن يتبعه .

فتبعه أنس الوجود ، وهو يسائل نفسه : يا ترى ما هو مصيرى مع هذا الأسد الخيف الوديع ؟

وسار الأسد وأنس الوجود فى أثره ، فصعد به فوق ربوة عالية ، ثم هبطا منها ، فإذا أمام أنس الوجود آثارٌ حديثة لأقدام ومناخُ جبال ، وسنابكُ خيلٍ رائحةٍ وغاديةٍ ، فعرف أن هذا هو الطريق الذى طرقة القومُ المسافرون بالورد فى الأكمام ؛ ففرح باهتدائه إلى هذا الأثر ، وعزم على تتبعه .

أما الأسد فإنه بعد أن أحسَّ أن صاحبه اهتدى بالأثر كَرَّ راجعاً من حيث أتى .

أما أنس الوجود فإنه لم يكدر يرى الأسد راجعاً حتى ينظر إليه ، ويتبعه نظراته ، كأنه يريد أن يشكره على ما قدَّم إليه من جميل لم يقدمه إليه إنسان ، ولكنه انعقد لسانه من شدة دهشته ، وفرط عَجْبه ؛ ولم يزد على أن قال : يظلمونك يوم يتحدثون عنك ، ويذكرون أنك حيوان مفترس ظالم غادر ، ولو أنصفوك من أنفسهم لكانوا هم الظالمين الغادرين ، الذين يفترسون بالسنتهم ، وخذاعهم ومكرهم ؛ ولكنك أنت الوديع الوفى الأمين ؛ فهيات هيات !!

وسار أنس الوجود يقصُّ الأثر ، ويقتفى المعالم التى رآها ويتبعها .

وطال به السيرُ أياماً وهو لا يعل من اقتفاء الأثر ، ثم انتهى به السير
بأن أشرف على بحر عجاج وعلى شاطئه انتهى ذلك الأثر .

ووجم أنس الوجود وتولاهُ الذُّهولُ لأنَّ الأثر انتهى ها هنا ، فهل
أغرقت الوردُ في الأكام في البحر ؟ !

لعل القلوب المتحجرة فعلت هذا ؟ وهل أتم القوم رحلتهم بطريق
البحر ؟ ! فأن الورد في الأكام ؟ ! وأين ذهبوا بها ؟ !

أأكونُ قد قطعت هذه الفيافي ، واجتزت هذه القفار ، بجسدٍ مكدود ،
وأقدام دامية ، لأتلقى هذه الضربة القاصمة ؟ ! وأتسى إلى هذه النهاية ؟ !
ماذا أفعل ؟ ! وإلى أين أتجه يا رباه ؟ !

ولم يتمالك من أن ينفجر مجبهاً بالبكاء ، بعد أن فقد الأمل ، واتقطع
أمامه الرجاء ، فقد ضعفت نفسه . ووهنت عزيمته ، بعد التجلّد
والصبر والكفاح .

وارتمى على شاطئ البحر يعتلجُ في صدره همٌّ شديدٌ ، فيث الأمواج
لواعجه ، وينثر عليها همومه وأحزانه ، ويسكبُ عبراته ، يناجي الحبيبة
التي تفصلُ بينه وبينها ليجُ صاحبة ، فلا يعرف لها مقرا ولا مُقاما ،
ولا يعرف : أهى بين الأحياء فيناديها ، أم هي بين الأموات فيناجيها ؟ !
ثم يندبُ حظه العائر ، ويكي أمله المفقود ، فكأنه يهذي هذيان
المحموم .

وانحدر قرص الشمس ثم غاب ، وأنس الوجود جاثم في مكانه

لا يشعرُ بالوقتِ ولا بمروره عليه ، وأخيراً انتبه من غَشِيته ، وصحا من هَذْيَانِه ، فروَّعته رهبة المكان ووحشته وهو وحيدٌ بين صخورٍ ورمالٍ ، وبحرٍ يهدر من مَجْرًا تارة ، ومُقهقهقا تارة أخرى ، وخُيِّلَ إليه أن هذا البحر الذي غَيَّبَ عنه حبيبته في جَوْفِه أو على ظهره ينوح لحاله باكيةً ، ثم تراءى له أنه يَصْحَك منه ساخرًا .

يا لله !! إنه سَيُجَنِّ !! ما باله الليلة يشعر بالوحشة ، ويحس الوحدة ، وقد قضى الليالي من قبلُ في الفلاة وحيدًا لا يؤنسه أنيس — آه — لقد كان هناك من يؤنسه ويرُدُّ وحشته ؛ كانت نفسه عامرةً بالأمل ، وروحه مُفعمّةً بارتجاء .

نظر إلى جانبه فرأى الصخور ترتفع وتعالى ، ومن خلفها يشمخُ جبلٌ عالٍ ، فخطر بباله أن يلجأ إلى مأوى بهذا الجبل يؤويه حتى الصباح . فارتقى الصخورَ ، ثم شرع يصعد مرتقى الجبل ، فأبصر فجوة تشبه المغارة فيم نحوها .

وما كان أشدَّ دهشته حين وجد لهذه المغارة بابًا ، فوقف أمام الباب يتسَمَّع ، فسمع من داخلها صوتًا !!

وشعر بخوف ، وشعر بإيناس . خوفٍ من شكِّه في أن يسكن إنسانٌ هذا المكان المنقطع المنعزل الموحش . وإيناسٌ لأمله أن يكون هذا صوت إنسان يسأله ويجاوبه ، ويبادلُه القول ، فلعلَّ حظًا تيسرُ ألقى به في هذا المكان ، فيجمعُ بينهما البؤس والشقاء .

فَتَقَدَّمَ مِنْ بَابِ الْمَغَارَةِ كَيْ يَطْرُقَهُ ، فَتَرُدُّهُ الْهَيْبَةُ ، وَتُدْفَعُهُ الرَّغْبَةُ .
 وَلَكِنَّهُ طَرَقَهُ طَرَقًا خَفِيفًا فَلَمْ يَرُدَّ عَلَى طَرَقِهِ أَحَدٌ . وَسَمِعَ مِنْ دَاخِلِ الْمَغَارَةِ
 الصَّوْتَ مَا زَالَ يَتَرَدَّدُ . فَأَنْصَتَ يَتَسَمَعُ ، وَأَرْهَفَ أُذُنَهُ إِرْهَافًا شَدِيدًا ،
 وَأَلْصَقَهَا بِثَقْبِ صَغِيرٍ فِي الْبَابِ ؛ فَإِذَا هُوَ يَسْمَعُ صَوْتَ قَارِئٍ يُصَلِّي وَيَتَعَبَّدُ .
 فَتَنْبَهُ ؛ وَأَدْرَكَ أَنَّ هَذِهِ الْمَغَارَةُ الَّتِي أَمَامَهُ لَيْسَتْ إِلَّا صَوْمَعَةٌ ،
 يَعْتَصِمُ بِهَا عَابِدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاعِبِينَ فِي الْآخِرَةِ ،
 وَيَتَخَذُ مِنْهَا مَكَانًا يَنْقَطِعُ فِيهِ عَنِ النَّاسِ ، وَيَتَخَلَّصُ بَعْضَ الْوَقْتِ مِنْ
 شُرُورِهِمْ وَأَثَامِهِمْ ، وَيُخْلِصُ إِلَى اللَّهِ .

فَاطْمَأَنَّ ، وَارْتَأَحَتْ نَفْسُهُ ، وَعَاوَدَ الطَّرْقَ مِثْلَ مِثْلٍ وَثَلَاثَ ، وَلَكِنَّهُ
 لَمْ يُجِبْهُ مَجِيبٌ ، فَعَاذَ الْاِكْتِتَابُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَالْيَأْسُ إِلَى قَلْبِهِ ، وَجَلَسَ عَلَى
 بَابِ الْمَغَارَةِ يَبْكِي وَيَنْدَبُ حَظَّهُ الْعَائِرَ .

وَبَيْنَمَا هُوَ غَارِقٌ فِي هَمِّهِ وَحُزْنِهِ ، رَأَى بَابَ الْمَغَارَةِ قَدْ فَتَحَ جَفَاءً ،
 وَسَمِعَ صَوْتًا مِنْ وَرَائِهِ يَقُولُ :
 وَارْحَمَتَاهُ !! مَنْ أَنْتَ يَا فَتَى ؟ !

فَنَهَضَ أَنْسُ الْوُجُودِ ، وَحَيًّا الشَّخْصَ الَّذِي لَاحَ لَهُ مِنْ خَلْفِ الْبَابِ .
 مَرَدُّ عَلَيْهِ التَّحِيَّةُ بِأَحْسَنِ مِنْهَا ، وَدَعَاءُ إِلَى الدُّخُولِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :
 مَا اسْمُكَ يَا بُنَى ؟ ! وَمَنْ أَيْنَ جِئْتَ ؟ ! فَأَجَابَ أَنْسُ الْوُجُودِ :
 اسْمِي أَنْسُ الْوُجُودِ ، أَمَا مَجِيئِي فَلَهُ قِصَّةٌ طَوِيلَةٌ عَجِيبَةٌ .
 فَقَالَ الرَّجُلُ :

لا بأس عليك ! استرح الآن مما أنت فيه من تعبٍ ونصب . ثم أتى
له بماءٍ وتمرٍ ، ودَعاه للطَّعام .

فلما استراح أنس الوجود قليلا ، وتناول الطعام الذي قُدِّم إليه ،
شرع يقصُّ على العابد قصته .

ولما انتهى منها وهو يبكى ، كان العابدُ كذلك يبكى لبُكاؤه .
ثم قال له :

حقًّا يا بني ؛ لقد انقطع أثر من تعقبت آثارهم على هذا الشاطئ ،
فإنهم ركبوا البحر ؛ لقد مكثتُ في هذا المكان عشرين عامًا ، فما رأيت
أحدًا يطرّقه إلا في هذه الأيام . ومن بضعة أيام سمعتُ هرجًا ومرجًا ،
وصوتَ بكاءٍ ، فخرجتُ من مغارتي ، ونظرت نحو الشاطئ فرأيت
قومًا نخيمين به ، ثم استقلوا مركبًا وغابوا به في البحر . ثم لم يلبثوا أن
عادوا ، وحطموا المركب وانصرفوا . ولم آبه أنا لهذا التصرف ، ولم أفقه
له وقتئذ معنى ، ولكن أظنُّني الآن قد عرفتُ السر .
فسأله أنس الوجود متلهفًا :

وما هو السرُّ ؟ وما سبب تحطيم المركب ؟ ! فإن ظنَّ العابد
يقينٌ غيره .

أجاب العابدُ : لا أعرف إن كان ما ظننته صحيحًا أو غير صحيح ،
فإن علم ذلك عند الله ، وإيكنه ترجيحٌ واجتهادٌ ، والمجتهِدُ قد يُخطئُ
وقد يُصيب .

فقال أنس الوجود :

ربك أخبرني ما هو هذا الخاطر الذي خَطَرَ لك ؟
أجاب :

أرجحُ أن الفتاة التي تعنيها قد ذهبوا بها إلى جزيرة في وسط هذا البحر ، وبهذه الجزيرة جَبَلٌ يُسمَّى جبلَ الشُّكْلِ ، وأنهم قد تركوها هُناك في مكانٍ أقاموه لها ، ثم عادوا وحطموا المركب حتى لا يمكن أحد الذهاب إليها .

عندما سمع أنس الوجود هذا القول من العابد علا بكاءه ، وازداد نشيجهُ ، حتى كادت مرارته أن تنفطر ، والعابد يُرَبِّتُ عليه ، ويواسيه ، قائلاً :

لا تيئسْ يا بُنى من رحمة الله ؛ إن بعدَ السرِّ مُسرّاً .

فقال أنس الوجود وهو يشرقُ بدموعه :

إنني لا أجدُ أُمَامِي إلا ظلاماً حالكاً ، ويأساً قاتلاً .

فقال العابد :

لا تجعل يا بُنى لِلْيَاسِ طريقاً إلى قلبك . اعتمد على الله فهو مُفَرِّجُ
الكروب ، وتوكل عليه فهو مُيسِّرُ الأمور .

قال :

ماذا أفعل ؟ ، وإلى أين أتجه ؟ ! أرشدني يا سيدي ربك ، وأُنزِلْ لي
سَبِيلِي أُمَامَاكَ الله ؛ فإن الدنيا على سمعتها ضاقت في وجهي ، وأصبحتُ

أَضِيقَ مِنْ كِفَّةِ الْحَابِلِ ؛ خَيْثَمَا تَلَفَّتْ لَا أُجِدُّ إِلَّا ظَلَامًا مُؤَيَّسًا .

نمّال العابد :

نَمْ أَنْتَ الْآنَ لِتَسْتَرِيحَ ، وَتَسْتَرَدَّ قُؤَاكَ ، وَسَأَقُومُ أَنَا لِلصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ
مَنْ أَجْلَاكَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يُلْهِمَنِي الرَّأْيَ السَّيِّدَ ، وَيُوقِّتَنِي إِلَى طَرِيقِ
الرَّشَادِ ، وَمَنْ يَرْجُ اللَّهَ لَا يَخِيبُ رَجَاؤُهُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فَهُوَ حَسْبُهُ .

فَامْتَثِلْ أَنَسُ الْوُجُودِ لِأَمْرِ الْعَابِدِ ، وَرَقْدُ مَفُوضًا أَمْرَهُ لِلَّهِ .

فَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ قَالَ أَنَسُ الْوُجُودِ لِلْعَابِدِ :

مَاذَا دَبَّرْتَ لِي يَا سَيِّدِي كَيْ أَبْلُغَ أَرْبِي ؟ ! فَإِنِّي لَا صَبَرَ لِي عَلَى هَذَا
الْأَمْرِ ، وَلَا رَاحَةً لِي إِنْ لَمْ أُنْقِذْ مِنْ سَبَبَتِ لَهَا هَذَا الشَّقَاءُ ، وَتِلْكَ الْوَحْدَةُ
الْمُضَيَّعَةُ الْقَاتِلَةُ .

فَأَجَابَ الْعَابِدُ :

أَمَّا وَهَذِهِ رَغْبَتُكَ الَّتِي لَا تَحِيدُ عَنْهَا ، فَانْزِلْ إِلَى الْوَادِي ، وَأَتْنِي
بَلِيفٍ مِنْ أَلْيَافِ النَّخِيلِ ، وَاللَّهُ يُعِينُنَا عَلَى النَّظَرِ فِي أَمْرِ يُبَلِّغُكَ مُرَادَكَ .
فَأَطَاعَ أَنَسُ الْوُجُودِ ، وَنَزَلَ إِلَى الْوَادِي ، وَجَمَعَ كَثِيرًا مِنَ اللَّيْفِ ،
وَأَتْنِي بِهِ إِلَى الْعَابِدِ .

فَأَخَذَهُ مِنْهُ ، وَعَكَّفَ عَلَيْهِ طَوْلَ يَوْمِهِ يَبْرُمُهُ حَبَالًا ، ثُمَّ صَنَعَ مِنْ
هَذِهِ الْحَبَالِ طُنْفًا كَبِيرًا مُتَّصِلَ الْجَدَلَاتِ ، مُوَاتِقَ الْحَلَقَاتِ .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّانِي صَحِبَ أَنَسُ الْوُجُودِ إِلَى الْوَادِي ، وَجَمَعَ لَهُ قَرَعًا
جَافًا كَانَ يَمْلَأُ جُوفَ الْوَادِي ، وَمَلَأَ بِهِ الطَّنْفَ ثُمَّ أَقْفَلَ عَلَيْهِ .

وقال لأنس الوجود :

ها قد صنمتُ لكَ قارِبًا مَلِيحًا .

ثم سَحَبَ الطُّنْفَ ، وأَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ ، وَأَنْزَلَ فِيهِ أَنْسَ الْوُجُودِ ،
وَزَوَّدَهُ بِبَعْضِ الزَّادِ ، وقال له :

اعتلِ هذا الطُّنْفَ ، وسِرْ بِهِ فِي الْبَحْرِ ، وَاللَّهُ مَعَكَ يُعِينُكَ عَلَى بُلُوغِ
مَقْصِدِكَ ، وَسَأُصَلِّيَ لَكَ ، وَأَدْعُو لَكَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ
مِنْ عِنْدِهِ .

فقال أنس الوجود :

يَا سَيِّدِي إِنْ لِسَانِي لَيُعْجِزُ عَنْ شُكْرِكَ ، وَإِنَّ جَنَانِي لَيَقْصُرُ عَنْ
الاعْتِرَافِ بِفَضْلِكَ .

ثم وَدَّعَ الْعَابِدَ ، وَاعْتَلَى الطُّنْفُ ؛ فَدَفَعَهُ بِهِ الْعَابِدُ إِلَى الْبَحْرِ ،
وَهُوَ يَقُولُ :

سِرَّ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ ، فَمَا بَلَغَ أَحَدٌ مُرَادَهُ إِلَّا بِالسَّعْيِ ، وَمَنْ لَمْ يُخَاطَرْ
بِنَفْسِهِ لَا يَنَالُ هَدَفَهُ .

وَأَتَتْ رِيحٌ فَطَوَّحَتْ بِأَطْنَفِ وَرَاكِبِهِ إِلَى عَرْضِ الْبَحْرِ ، وَمَا
زَالَتْ تَدْفَعُهُ الْأَمْوَاجُ حَتَّى غَابَ عَنْ عَيْنِ الْعَابِدِ .

وَقَضَى أَنْسُ الْوُجُودِ فِي رَحْلَتِهِ ، أَوْ مَحْنَتِهِ ، هَذِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ قَاسَى
فِيهَا الْأُمُورَ ، وَنَالَ مِنْهُ التَّعَبُ كُلَّ مَنَالٍ . أَخَذَتْ الْأَمْوَاجُ تُرَجَّجُهُ
تَارَةً ، وَتَدَاعِيهِ طَوْرًا . تَقْدِفُهُ مَوْجَةً ، لِيَتَلَقَّفَهُ مَوْجَةٌ ، وَتَرْفَعُهُ أَجَةً

وتخفيضه لجة، ويدفعه تيار الماء ويردّه اتجاه الهواء؛ ظلّ على ذلك وقتاً. ثم صخب البحر وهدر، فكان يقلبه ظهراً لبطن حتى أضناه بين لججه وأماوجه، وأذاقه من عذابه وأهواله ما لا قبل له باحتماله، وأراه الموت مرّاتٍ تلو مرّاتٍ في أعاصيره وأنوائه، وهو متشبّث به تشبّث الحريص على حياته؛ وبعد لأي أدركته رحمة الله، وقذف به إلى الجزيرة التي ينشدّها. فنزل إلى البرّ مثل الفرخ الدّاخ، لا يقوى على السّير أو الحركة.

وظلّ على هذه الحالة زمناً ليس بالقصير، ثم استطاع أن يستجمع قواه، وينهض على قدميه، ويسير في أرجاء الجزيرة، لعله يجد مخرجاً. جال أنس الوجود بالجزيرة جولة قصيرة، فوجدها جزيرة ذات أرض خصبة، فيها أنهارٌ جارئةٌ، وأشجارٌ مثمرةٌ، وأطيّارٌ مغرّدةٌ، ورأى في وسطها ربوةً عاليةً، يلوح من فوقها شيءٌ أبيض ناصع البياض، ما إن رآه حتى أدرك أنه لا بد أن يكون هو المعتقل الذي حُجّلت إليه الورد في الأكام.

فلم يتوان عن ارتقاء الربوة إلّا ريثما التقط بعض ثمراتٍ يتبلّغ بها، وصعد على الربوة بهمةٍ ونشاطٍ لم يكن ينتظرهما من نفسه بعد أن قاسى ما قاسى من مشاق وأهوال.

وبعد برهةٍ كان يجول حول قصرٍ صغيرٍ منيعٍ، يعتدّ أمامه على مدى البصر متّسعٌ فسيحٌ يشبه البستان، مسورٌ بسورٍ عالٍ؛ فطاف حوله

يختبرُ منافذَه حتى عَثَرَ بالبَابِ ، فوجدَه مُقْفَلًا مُحْكَمَ الإِفْقَالِ . فربضَ
أمامَه ينتظرُ ما يتأتَّى من الأحداثِ .

وبعد أيامٍ ثلاثٍ فُتِحَ البابُ ، وظهرَ من وراءِه أحدُ الخدمِ ، وما
إِنْ رأى أنسَ الوجودِ جائئًا بالبابِ بثيابه الرثَّةَ ، وسجنتيه المغبرةَ ، حتى
بُهِتَ ومَلَكَ عليه العجبُ كُلَّ حَواسِه ، وقالَ له :

يا هذا ؛ من أنت ؟ ! ومن أتى بك إلى هنا ؟ ! إنسُ أنت أم جني ؟ !
خَرَجْتَ مِنَ الْأَرْضِ أَوْ هَبَطْتَ مِنَ السَّمَاءِ ؟ !
فأجابه أنسُ الوجودِ :

إنني رجلٌ من أصهبان ، وكنتُ مسافرًا بتجارة في البحر ؛ فانكسرَ
المركبُ الذي كنتُ فيه ، وقذفتني الأمواجُ بعد أن أشرفتُ على الموتِ
إلى هذه الجزيرة ؛ فهل أجِدُ عندكم مأوى آوى إليهِ ، حتى يهيئَ اللهُ لي
فرصةَ العودة إلى بلدي ؟

فتقدَّم الخادمُ من أنسِ الوجودِ وعانقه وقبله وهو يبكي ويقول :

حيَّاكَ اللهُ يا وَجْهَ الأحبابِ . إن أصهبانَ بلادِي ، ولي فيها أبٌ
وأُمٌّ ، غزانا قومٌ أقوياءُ ، فأخذوني أسيرًا في جملة من أخذوا من الأسرى
وباعوني خادمًا كما تَرى .

فعانقه أنسُ الوجودِ ، وبادله قُبلةً بقبلة ، مجاوبًا له في إبداءِ عَوَاطِفِهِ .
وبعد أن أطفأ ما بهما من حَنينٍ ، دعاهُ الخادمُ إلى الدخولِ إلى ساحةِ
القصرِ .

دَخَلَ أَنَسُ الْوُجُودِ الْقَصْرَ مَعَ الْخَادِمِ ، فَرَأَى فِي السَّاحَةِ أَشْجَارًا
بَاسِقَةً ، ظِلُّهَا مَمْدُودٌ ، وَثَمَرُهَا مَنضُودٌ ؛ تَتَفَرَّعُ مِنْهَا جُذُودٌ تَجْرِي
وَتَتَشَعَّبُ ، وَرَأَى فِي أَغْصَانِ الْأَشْجَارِ أَقْفَاصًا تَتَدَلَّى ، بَعْضُهَا مَفْضُضٌ ،
وَبَعْضُهَا مَذْهَبٌ ، لَهَا بَرِيقٌ يَخْطِفُ الْأَبْصَارَ .

فَاقْتَرَبَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْفَاصِ يَتَأَمَّلُهَا ، فَوَجَدَ فِي دَاخِلِهَا طَيُورًا ؛ فَوَقَفَ
أَمَامَ قَفْصٍ مِنْهَا ، وَكَانَ فِيهِ عَنْدَلِيبٌ ؛ فَلَمَّا رَأَاهُ الْعَنْدَلِيبُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ نَظْرَةً
حَزِينَةً فِيهَا إِشْفَاقٌ مَمزُوجٌ بِالْعُطْفِ وَالْحَنَانِ — نَاحَ نَوَاحِ الْغَرِيبِ ،
لَذَكَرَى الْوَطْنَ أَوْ ذَكَرَى الْحَبِيبَ .

فَقَاضَتْ الدَّمُوعُ مِنْ عَيْنِي أَنَسُ الْوُجُودِ ، مَجَاوِبَا الْعَنْدَلِيبِ فِي نَوَاحِهِ
قَائِلًا لَهُ :

لَا تَحْزَنْ فَحَنْ سَيَانِ . لَا تَظُنْ أَنَّكَ أُسِيرٌ لِأَنَّكَ مَحْبُوسٌ فِي قَفْصٍ ،
وَأَنِّي طَلِيقٌ أَغْدُو وَأَرْوَحُ كَمَا أَشَاءُ ، وَعَلَى مَا أَشْتَهِي ؛ فَلَيْسَ الْأَسْرُ أَنْ
تَحْدُدَ إِقَامَتَكَ فِي مَكَانٍ ، وَلَيْسَتْ الْحُرِّيَّةُ أَنَّكَ تَغْدُو وَتَرْوَحُ حُرًّا طَلِيقًا
مِنْ كُلِّ قَيْدٍ ؛ وَإِنَّمَا الْحُرِّيَّةُ وَالْعِبُودِيَّةُ أَمْرَانِ مَعْنَوِيَانِ ، يَفْرُقُ أَنْ يَشْعُرَ
الْإِنْسَانُ بِالسَّعَادَةِ فِي نَفْسِهِ ، أَوْ أَنْ يَشْعُرَ بِالشَّقَاوَةِ وَالْحَرَمَانِ .

وَمَا زَالَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْأَقْفَاصِ ، وَيَنْظُرُ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الطُّيُورِ ،
وَيُنَاجِيهَا ، وَيُبْشِرُهَا أَحْزَانَهُ وَأَشْجَانَهُ ، وَيَنْشُدُهَا أَهَازِيْجَهُ وَأَشْعَارَهُ ،
وَالْخَادِمُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ فِي اسْتَعْجَابٍ وَاسْتِغْرَابٍ ، حَتَّى تَأْثُرَ بِكَلَامِهِ ، فَمُصَفِّتٌ

به نوبة من الحزن كادت تخرجه من صوابه ، لولا أن أنس الوجود
اتجه إليه ، وسأله :

لماذا تضعون هذه الطيور في الأقفاص ، وتعلقونها على هذه الصورة
الغريبة ؟ !

فأجاب الخادم :

إن سيّدتي أمرتنا أن نصطاد لها هذه الطيور ، وأن نضعها هكذا في
الأقفاص ، لتأنس بها ، وهي في كلّ غروب تنزلُ إليها فتناجيهما ،
وتتحدثُ إليها ؛ وبلغ من إعزازها لهذه الطيور ، لأنها سلّوتُها ، أنها أمرتنا
أن نصنع لها أقفاصاً من فضة وذهب .

فقال أنس الوجود ، وقد خفق قلبه خفقةً شديدة لا يعرف لها سراً :
ولمن هذا القصرُ المنزلُ المنيع ؟ !
أجاب :

هو للوزير إبراهيم ، وزير الملك شماخ ، بناءً لا بنته خوفاً عليها من
عوارض الزّمان ، وطوارق الحدثان ؛ ثم حملها إليه ، وأقامها فيه ، ولا تجلب
إليها المؤن إلا مرة في كلّ عام .

فقال أنس الوجود للخادم ، وهو يحاول أن يخفي عنه فرحه واضطرابه :
حقاً إن هذا الأمر يدعو إلى العجب ، ولكن ألا تدعني يا صاحبي
هنا في ضيافتك ، حتى ييسّر الله لي أمراً ، وإذا سألك سائلٌ عني ، فقل إنه
رجلٌ من أولياء الله ، ساقه الله إلينا .

فقال الخادم : انزل في ضيافتى ياسيدى على الرَّحْب والسَّعة .
وانتجى أنس الوجود ناحية ، وجلس في أحد أركانها ، ملتفًا
بأثماله ، ينتظر ميعادَ نزول الورد في الأكمام ، لمناجاة طيورها .
وكان إذا لمح أحدٌ من خدام الدَّار وسأل عنه : من يكون ؟
يجيب الخادم : إنه ولى من أولياء الله الصالحين . دَعَوهُ لَشأنه
يتعبد ، ويتعبد .

(٥)

ولكن هذه الحيلة لم يمن أنس الوجود لها ثمرة ، فإن الورد في
الأكمام كانت قد نفذ صبرها ، وضاق ذرعها ، وأصبحت لا تُطيق صبراً
على المقام في هذا المكان الموحش ، وحيدةً طريدة .
ففكرت في حيلة تتخلص بها من ذلك السجن الموحش ، وتخرج
لتجد لها أنيساً تُناجيه ويُناجيه خيراً من هذه الطيور المحبوسة في
الآقفاص .

فجاءت ببعض الملابس القديمة ، وزفتها ، وجدلت منها حَبلاً طويلاً
متيناً ، وقضت ليالى في جَدَل هذا الحبل ، ثم دَلَّتْهُ من نافذة خلف
القصر ؛ بحيث لا تقع عليها عين طيرٍ ولا خادم ، وتعلقتُ بذلك الحبل ،
وهبطت إلى الأرض خارج القصر ، لعلها تجد من ذلك الفضاء الواسع
مخرجاً مما هى فيه من ضيق ووحشة ، فإن السعادة ليست في سِعة الدُّور ،



وارتفاع القصور ، وكثرة الخدم والحشم ، والحدائق الغناء ، والرياض
النضرة ، والأزهار المتفتحة ، والمياه الجارية ، والطيور المغردة ، ولكنها
شئ وراء هذا كله ، وتنحى للإنسان في وجود هذا وفي غير وجوده ،
فهى ليست إلا فى أن يرى الإنسان نفسه سعيداً ، ويقدر لها أنها
سعيدة ، ولذلك تختلف أسباب السعادة باختلاف الناس .

فالبخيل يرى السعادة فى جمع المال ، والمُسرف يرى السعادة فى إنفاق
المال ، والعالم يرى السعادة فى تحصيل العلم ، وتأليف الكتب ، والزاهد
يرى السعادة فى الاخشيشان والتقشف ، والمحروم يرى السعادة فى أن
يُعطى ، والوحيد يرى السعادة فى وجود الأُنيس ، والسجين يرى
السعادة فى الانطلاق ؛ وهكذا كلُّ إنسان ، وما يُسرَّ له .

لذلك رأت الوردُ فى الأحكام أن ما يُحيط بها من جمال القصر وأبهته ،
وتوفير أسباب الراحة لها من خدم وحشم وطعام وشراب — لا سعادة
لها فيه ؛ وإنما سعادتها فيما تطالبُ لنفسها ، وتتمناه لها ، ففكرت فى
الخلاص من ربقة الأسر ، ووحشة السجن ، الذى ألقاها فيه وحشية
الأبوة ، وضراوة الحنان ، وتمردُ العطف ، وجُنون الغيرة .

لذلك عوّلت على أن تتدلى من جوار القصر إلى الجزيرة ما دامت
لا تستطيع الفكاك عن طريق الباب ، وبعد أن تُصبح حرةً طليقة تتدبر
فى طريقة تعودُ بها إلى مدينتها ، وتلجأ إلى الملك شماخ ترجو شفاعته لدى
أبيه ، مظهرة براءتها ، ونصاعة صفحتها .

ومن ثمة نفذت هذه الفكرة دون تراوان أو إبطاء .

وما إن استقرت قدمها على أرض الجزيرة ، خرج جدران القصر حتى أخذت تعدو مسرعة رغم وعورة الطريق ، خشية أن يفطن لغيابها حُرَّاسها من خدم القصر ، ويعملون على إعادتها ثانية .

ولم يمض إلا قليلٌ من الوقت ، حتى كانت تعتلى إحدى الصخور المشرفة على البحر ترقبُ منها ما يحيط بالجزيرة لعلها تجدُ أحداً يرشدها إلى الطريق الذي تسلكه ، أو قارباً ينتشلها مما هي فيه .

ولحسن حظها ساق الله إليها صياداً يصطادُ بقاربه في البحر ، ويجول به قُربَ الجزيرة ، على الرغم مما كان شائماً بين الصيادين عن هذه الجزيرة ، من أنها تسكنها جنيةٌ وأولادها الصغار ، وأن هؤلاء الأولاد سيكونون وينوحون بصوتٍ مؤثر ، يحملُ كلَّ من يسمعُ عويلهم المؤلم يقول : إنه عويلٌ من مملكتِ أولادها . لذلك عرفت الجزيرة وربوتها باسم جَبَلِ الثكلى ، وتجنَّبَ المسافرون والصيادون الاقتراب منها .

لذلك ما كاد الصيادُ يرى الوردَ في الأكام قابعةً فوق الصخرة وهي تشير إليه بالاقتراب منها ، حتى تولَّاه الرُّعب ، وغلب عليه فزعٌ شديدٌ ، وأسرع يحولُ دفة قاربه مبتعداً به عن الجزيرة ، حتى لا يقع فريسة لتلك الجنيَّة .

ولكن الورد في الأكام — وقد كانت هذه هي فُرصتها الوحيدةُ

للفكاك ، قبل أن يلحقَ بها أحدٌ - أخذت تُنادي الصيادَ ، وتشيرُ إليه
ألا يَتَّعِدْ ، وقد عَرَفَتْ أنه خَائِفٌ منها لوجودها في هذه الجزيرة
المهجورة ظناً منه أنها ليستُ بشراً .

ورآها الصيَّادُ وهي تشيرُ إليه بالأُ يَتَّعِدْ ، وسمَّعها وهي تُنادي
فَتَمَهَّلْ ، ولكنه ظلَّ يتوجَّسُ خِيفَةً منها ، وتطلع نحوها يتأملها ،
فوجدَها فتاة بارعة الجمال ، باهرة الحسنِ ، بهية الطلعة ترْتدى ثياباً
حريرية فاخرةً ، وتحتلِّي بالجواهر اللامعة ، واليواقيت الثمينة ، فحار
في أمرِه ، واقترب بقاربه من شاطئ الجزيرة وصاح بها :

من أنتِ ؟ !

أَجَابَتْ :

أنا فتاةٌ بائسةٌ ، سُجِنْتُ ها هنا ، فنجَّني نَجَّاكَ اللهُ ، ولا تَخَفْ .

فتقدَّم الصيَّادُ نحوها ، وسألها :

إنْسِيَّةَ أَنْتِ أمِ جِنِيَّةِ ؟ !

أَجَابَتْ :

إنْسِيَّةٌ وَاللَّهِ !! قَذَفَ بِي الْخَطُّ التَّعَسُّ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، نَفَلَصْنِي
يُخَلِّصُكَ اللهُ ، وَفَرَّجْ كَرْبِي ، يُفَرِّجْ اللهُ كَرْبَكَ ، وَأَغْنِي يُغْنِكَ اللهُ .

اطمأن قلبُ الرجلِ بعضَ الاطمئنانِ ، وسألها :

ومن أتى بكِ إلى هذه الجزيرة المهجورة ، وإلى أينَ تُريدِينَ

أن تذهبي ؟ !

أجابَت :

جاءَ بِي نفرٌ من أَهْلِ لِيَمَعْدُونِي عن المَدِينَةِ الَّتِي فِيهَا مِنْ أُحِبِّ . وأُرِيدُ
أَنْ أَعُودَ لِأَتَقَدَّمَ بِظِلَامَتِي إِلَى السُّلْطَانِ .

ثُمَّ بَكَتْ ، وَتَوَسَّاتْ إِلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَهَا مَعَهُ . فَرَقَّ لَهَا قَلْبُ الصَّيَادِ
وَعَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّهَا مِنَ الْإِنْسِ لَا مِنَ الْجِنِّ ، وَوَطَّنَ عَزَمَهُ عَلَى أَنْ يَحْمِلَهَا
مَعَهُ فِي قَارِبِهِ ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ .

فَقَالَ لَهَا : لَا تَبْكِي ، انْزِلِي إِلَى الْمَرْكَبِ ، وَسَأَذْهَبُ بِكِ إِلَى حَيْثُ
تُرِيدِينَ .

فَنَزَلَتِ الْوَرْدُ فِي الْأَكَامِ إِلَى الْمَرْكَبِ ، وَمَا اسْتَقَرَّتْ بِهِ حَتَّى
حَوَّلَ الصَّيَادُ دَفْتَهُ ، وَأَسْرَعَ يَتَمَدَّدُ عَنِ الْجَزِيرَةِ .

وَسَارَ بِهِمَا الْمَرْكَبُ شَوْطًا بَعِيدًا ، وَالْوَرْدُ فِي الْأَكَامِ قَرِيرَةً الْعَيْنِ ،
مُسْرُورَةً بِخَلَّاصِهَا تَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نَجَاتِهَا ، وَلَكِنَّ سُرُورَهَا وَفَرَحَهَا هَذِينَ
لَمْ يَطُولَا ، فَقَدْ هَبَّتْ عَلَى الْمَرْكَبِ رِيحٌ عَنِيفَةٌ أَفْلَتَتْ زَمَامَهُ مِنْ يَدِ قَائِدِهِ
وَجَمَاعَتِهِ لَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَى تَسْيِيرِهِ .

وظَلَّتْ هَذِهِ الرِّيحُ تَدْفَعُ الْقَارِبَ وَتَسِيرُهُ حَيْثُمَا شَاءَتْ مَدَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ
وَالْوَرْدُ فِي الْأَكَامِ قَابِلَةٌ بِهِ ، تَرْتَمِدُ خَوْفًا وَفَرَقًا . ثُمَّ هَدَأَتِ الرِّيحُ وَسَكَتَتْ ،
فَتَوَلَّى الصَّيَادُ قِيَادَ الْقَارِبِ وَاتَّجَهَ بِهِ نَحْوَ مَدِينَةٍ لَاحَتْ لَهُ مِنْ بَعِيدٍ .

وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ يُحْكِمُهَا مَلِكٌ عَظِيمٌ اسْمُهُ الْمَلِكُ دِرْبَاسُ ، وَكَانَ فِي
هَذَا الْوَقْتِ يُشْرِفُ هُوَ وَابْنُهُ مِنْ نَافِذَةِ قَصْرِهِ الْمِطْلُ عَلَى الْبَحْرِ ، فَرَأَى

الصيَّاد وهو يقتربُ من مَرَسَى القصرِ ، ويُرسى فيه قاربَه . فقال
الملكُ لابنه :

هيا بنا تترَيِّضْ بِساحِلِ البحرِ ، ونَرَى : ما شأنُ هذا الصيَّادِ
الغريبِ ؟

فَنَزَلَا من بابِ القَيْطُونِ ، واتَّجَّهَا إلى حيثُ رسا القاربُ ، وكان
الصيَّادُ وقْعْدٌ مشغولاً بِتَثْبِيتِ القاربِ بِالْمِرْسَاةِ ، وهو لَا يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ
الْمِرْسَاةُ إِنَّمَا خُصِّصَتْ للقواربِ مِلِكِ الْمَدِينَةِ ، وَأَنَّ هَذَا الْقَصْرَ الْمَشْرَفَ
عليه قصرُهُ .

واقْتَرَبَ الْمَلِكُ من القاربِ فرَأَى الْوَرْدَ في الْأَكْهَامِ قَائِمَةً فِيهِ وَكَأَنَّهَا
الْبَدْرُ لَيْلَةً تَمَامِهِ ، وَهِيَ تَرْتَدِي مَلَابِسَ نَحْمَةٍ قِيَمَةٍ ، فَخَارَ فِي أَمْرِهَا ، وَأَمَرَ
هَذَا الصَّيَّادَ الَّذِي تَبَدُّو عَلَيْهِ عِلَامَاتُ الْفَقْرِ .

وَكَاذِمًا أَحْسَسَتْ الْوَرْدُ في الْأَكْهَامِ بِالنَّظَرَاتِ الْمَصُوبَةِ نَحْوَهَا ، فَفَتَحَتْ
عَيْنَيْهَا فَابْصُرَتْ شَخْصًا قَائِمًا إِزَاءَهَا ، تَبَدُّو عَلَيْهِ الْهَيْبَةُ وَالْأُبْهَةُ وَالْوَقَارُ
يَنْظُرُ إِلَيْهَا . فَتَلَفَّتْ حَوْلَهَا ، فَرَأَتْ الْمَرْكَبَ رَاسِيًا أَمَامَ بِنَاءٍ عَظِيمٍ
شَامِخٍ ، وَلَمْ تَقْعُ عَيْنُهَا عَلَى الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ مُشْغُولًا بِتَثْبِيتِ
مَرْكَبِهِ ، فَارْتَجَفَتْ ، وَفَاضَتْ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَيْهَا ، وَنَهَضَتْ قَائِمَةً .
فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ :

يَا بَنِيَّةُ ؛ مَنْ أَنْتِ ؟ وَمَا السَّبَبُ فِي مَحِيئِكَ إِلَى هُنَا ؟
فَأَجَابَتْ :

أنا ابنة إبراهيم وزير الملك شمش ، أما مجيئى هنا فأبره عجيبٌ
وشأنه غريب .

وأقبل الصيادُ ، فنظرت إليه الوردُ فى الآكام ، كأنما تستفهمه :
إلى أين ساقها ؟!

فبادر الملكُ الصيادَ بقوله : من أين جئت ؟ وما شأنُ هذه الفتاة ؟!
فأجاب الصيادُ ، وقد أدرك أن مُحَدِّثَهُ لا بُدَّ أن يكون شخصيةً
ذات مكانةٍ بهذه المدينة :

يا سيِّدى إننى صيَّادٌ ، أجوبُ البحر فى طلب الرزق ، فساقتنى الصدفُ
إلى جزيرةٍ مهجورةٍ لا يقربُها أحد ، فعمرتُ على هذه الفتاةِ سجينَةً
بها ، وتوسَّلتُ إلى أن أخلصها مما هى فيه ، وأصبحها معى لعلها تستطيع
العودةَ إلى بلادها ؛ فهبَّت علينا ريحٌ عاصفةٌ جعلتنا نضلُّ الطريقَ
ونصلُّ إلى هذه المدينة التى لا نعرفُ لمن تكونُ ؟!

فقال الملكُ : لا بأسَ عليكما ! فأنا ملك هذه المدينة ، ولن ينالكما
إلا الخيرُ . ولكن : حدِّثينى يا فتاةٌ عن سببِ سجنِك هذا حتى نعمل
على إنصافِك .

حينئذٍ قصَّت الوردُ فى الآكام على مَسامع الملكِ قصتها ، من بدايتها
إلى نهايتها ، والملكُ مُصغِرٌ إليها وقد شدَّههُ العجبُ . فلما فرغت منها
أحسَّت أنها قد أَلقت عن كاهلها حِمْلًا ثَقِيلاً ، فتنفَّست الصعداء ،
وشعرت أن بردَ الرَّاحةِ ، وهدوءَ الاطمئنان ، وحلاوةَ الإيناس ،

تمشت في جسمها ، ولا سيما أنها أيقنت أن الملك قد عطف عليها وأنه سيسعى إلى الأخذ بناصيرها .

وكان ما شعرت به الورد في الأكام هو عين الحقيقة ، فإن الملك كان قد تأثر حقاً من فصتها وعول على مساعدتها . فقال لها :
يا بُنَيَّة لا تخشى شيئاً ، فسأُرسلُ أنا إلى الملكِ شامخ أرجو مساعدته في هذا الأمر .

فجست الورد في الأكام بين يدي الملك ، وقبلت طرف رداءه ، وهي تقول :

جزاك الله عني خيراً يا مولاي .

فأنهضها الملك ، وقال لها : ادخلي إلى القصر ، فسنعدُّ لك مكاناً تقيمين فيه حتى يحقق الله لك ما تبتغي .

ودخلت الورد في الأكام إلى القصر ، وهي تشكر الله الذي قيض لها هذا الملك الكريم .

وكان هذا هو حال الصياد أيضاً إذ انصرف من لدى هذا الملك راضياً مُغْتَبطاً بعد أن نال نفحة طيبة من المال لم يكن يأمل في نوالها ، أو يخطر له هذا الخطر يوماً على بال .

أما الملك فقد دخل من فوره إلى مجلسه ، واستدعى وزيره ، وقال له :

إني أريد أن أرسلك إلى الملك شامخ برسالة ، وتعود لي فوراً بجوابها .

فقال الوزير : سمعاً وطاعةً ! وما هو مضمونها ؟ !
قال الملك : إننى أطلبُ مصاهرتَه ، وذلك بأن أزوج ابنتى من شخص
من أصفِيائه اسمه أنسُ الوجود . والجوابُ هو أن تأتى بأنس الوجود
معك .

ثم أردف وهو يشير له بأصبعه محذراً :
وإياكَ أن تحضر بدونه ، ابذل فى سبيل ذلك كلَّ جهدك ، واعملْ
كل حيلتك ، وإلا كان نصيبك عندى ما لا تحب ، وتنتال منى
ما تكره .

ثم أعطاه رسالةً مكتوبةً ليسامها للملك شامخ ، وأمره بإعداد هدية ،
قيمة من جواهر وآلئ يأخذها معه .

ووصل وزيرُ الملك درباسُ إلى قصر الملك شامخ يحمل الرسالة
والهدية ، فقبول من الملك بحفاوةٍ وترحيب .

ولما اطلع على رسالة الملك درباس التى بعثها إليه ، لم يملك أن انحدرت
على وجهه دمتان ، وتتم كأنما هو ينجى نفسه

أين أنت يا أنس الوجود ؟ ! وما هو يا ترى سرُّ غيابك ؟ !
ثم قال للوزير :

إن من دواعى سرورنا واغتيابنا أن نجيب أىَّ مطلبٍ يطلبه الملك
درباس منا ، ولكن ، كم يحزُّ فى نفسى ألا أستطيعُ إجابته إلى هذا
المطلب على رغمى .

فأنس الوجود غائبٌ ولا نعرف سرَّ غيابه ، مختفٍ ولا نعلم علَّةَ اختفائه . أمرت بالبحث عنه ، ولكن لم يأتني ما يُشفي الغليل .

فوجم الوزير ، وتكدَّرت نفسه ، وعبس وجهه ، وقال للملك :
وما العمل يا مولاي ؟ فإنني لا أستطيع أن أضع قدمي في بلادى إلا وأنس الوجود معي .

فقال الملك :

سأكتب للملك درباس بحقيقة الأمر ، وجليّة الخبر ، فإن الأمر ليس في يدنا ولا في يدك ، فلا لوم ولا تَثْرِيْب عليك .

فقال الوزير وهو يهز رأسه غير مقتنع :

نعم ، إنه لا حيلة لنا فيما كان ، ولكني الآن لا بد أن أحتال حتى أعثر عليه ، فهدّني يا مولاي بما يرشدني عن أوصافه ، ويُعينني على البحث عنه ، وإنك إن فعلت ذلك أسديت إلى يدٍ كريمةً ، وقدّمت لي جيلا لن أنساه .

فقال الملك :

وهل تظنني أقصر في البحث عن أنس الوجود ، أو أمسك يدي عن إعانة من يُريدُ البحث عنه ، دونك وزيرى إبراهيم ، اصحبه معك للبحث عنه ، فهو يَعْرِفه حقَّ المعرفة ، واصطحبا معكما من يُعينكما على هذا الشأن من رجال ، وما تحتاجان إليه من زادٍ ومال .

وأمر الملك وزيره باصطحاب وزير الملك درباس ، والخروج للبحث
عن أنس الوجود .

فخرج الوزيران ومعهما جماعة من الأتباع ، فجاؤا البلاد من أقصاها
لأدناها يبحثون وينقبون ، يسألون ويستفهمون ، دون جدوى ، فما
عثروا لأنس الوجود على أثر ، ولا دلهم أحدٌ على خبر .

والوزيران على رغم ما نالهما من التعب والنصب والمشقة لم يكلا
ولم يئسا .

فالأولُ يعرف أنه لن تكون له حياة طيبة يرتجىها في وطنه وبين
أهله دون أن يَعرُثُ على أنس الوجود ويعود به إلى ملبكه .

والثاني يعرف أن معنى العثور على أنس الوجود وإرساله إلى الملك ،
درباس ، راحة لنفسه ، وأما لابنته .

لذا كان مسعاهما جدًّا ، وبحثهما شاملاً ، تحفزهما رغبة أكيدة ،
وتدفعهما عوامل نفسية .

ولما طال بهم جميعاً كثرة الطواف ، أشار نفرٌ من الأتباع على
الوزيرين بالذهاب إلى جبل الشكى .

فعبس الوزير إبراهيم لهذا الرأي ، وعارض فيه خوفاً من معرفة سر
ابنته الورد في الأكام ، ولكنه فجأة خطر بباله خاطر :

أيكون أنس الوجود حقاً بجبل الشكى ؟

أيكون قد عرف مقر ابنته وتبعها ؟

أَيَكُونُ هَذَا سِرُّ اخْتِفَائِهِ ؟ !

يَا لَلْهَوْل !! وطاش صوابُ الوزير ، وأمر في الحال بِشدِّ الرِّحالِ
إلى جبلِ الثُّكلى .

وأعدُّوا مراكبًا لهذا الغرض أَقْلَهُمْ جَمِيعًا إلى الجزيرة .

وما إن وَصَلُوا حتَّى تقدَّم الوزير والد الورد في الأكلام إلى
القصر ، وطرق بابَه ، ففتحه أحدُ الخدم ، فلما عرفَ في الطَّارِقِ
سَيِّدَهُ فرح ورحَّبَ به ، ودخلوا جميعًا إلى ساحةِ القصر ، وسألَ الوزيرُ
الخدامَ في سِرٍّ من أَصحابِه :

كَيْفَ حالُ سَيِّدَتِكَ ؟

فوجَّهَ الخدام ولم يُجِرْ جوابًا .

فانقبَضَ قلبُ الوزير ، ودخلَ القصرَ ، وسألَ الجوارى عن ابنته ،
فقلنَ له : إنها اختفت ، ولم يُجَدِّ البَحْثُ عنها نفعًا ، وأرَيْنَهُ سُيُورَ الأَقْشَةِ
التي فرَّت بها ، وهى لا تزالُ مربوطةً في مكانها من جدارِ القصرِ الخلفي .
فكاد الرجلُ أَنْ يُصْعَقَ ، وتنفطرَ مَرَّارَتُهُ من شِدَّةِ القهر والغضبِ
وغَشِيهِ حُزْنٌ قَاتِلٌ ، ونزلَ من أعلى القصر وهو يُتِمِّمُ قائلًا :
لا حيلةَ في قضاءِ الله ، ولا مفرَّ مما قدَّره وقضاه ، ولا ينفعُ الحذرُ
فيما خطَّه القدر .

وفاضت به شُجُونُهُ ، فلم يتمالك غيرَ التصفيقِ بيديه ، وضربَ كَفٍّ
بِكَفٍّ تَارَةً ، وعَضَّ الأصابعَ ، والجزَّ على الأنياب تارةً أخرى .

فسأله وزيرُ الملكِ درباس : ما بهِ ؟ وما غيرَ حاله وقلب كيانه ؟ !
 فقصَّ عليه طرفاً من قصَّة بنته الورد في الأحكام .
 فالتفت حوله وزيرُ الملكِ درباس والأتباع والخدمُ يواسونه في
 محنته ، ويخففون عنه مُصيبته .

ولما سَكَنَ غضبُ الوزيرِ بعضَ الشيء سأل الخدم :
 ألم يأتِ إلى هنا أحد ، أو ينزل بالجزيرة إنسان ؟
 قالوا :

لم يأتِ إلى هنا إلا هذا الرجلُ المَجْدُوبُ ، قَذَفَه البحرُ بعد أن أغرق
 المركبَ الذي كانَ مُسافراً عليه ، وموطنُهُ أصبهان .
 وأشاروا إلى أنس الوجود ، وكان قابلاً بجوارِ جدارِ البستان ،
 مُشعَّتِ الشَّعرُ مُغَبَّرَ الوجه ، ذاهلاً عما يدور حوله .
 فمبَرَّتْه عينُ الوزيرِ ، ولكنه لم يَفْطِنَ إلى أنه أنس الوجود لتغيُّر حاله .
 وأمرَ الخدم والأتباع بالخروج إلى الجزيرة ، ومُعاودة البحث عن
 الورد في الأحكام ، فامتثلوا أمره ، ولكن ذهبَت الجهودُ هباءً .

فجُنَّ جُنُونُ الوزيرِ ، وثارتْ ثائرتُهُ ، وخرجَ يَنْقُبُ عن ابنته في
 أرض الجزيرة ، ويبحثُ فيها شَبْرًا شَبْرًا ، وهو يندُبُها ويبكيها ،
 عائداً باللومِ على نفسه ، لتعسُّفه معها ، وظلمه إياها .

ولما رأى وزيرُ الملكِ درباس اشتغال رفيقه بالبحث عن ابنته ، وأنه
 لا جدوى من بقاءه ، ولا أمل له في العثور على أنس الوجود — استأذن

من الوزير إبراهيم في العودة إلى بلاده ، ثم قال يوحى إلى أنس الوجود :
وأريد أن أصحبَ هذا الفقيرَ المسكينَ معي ، فأوصله إلى بلاده
أصبهان حيث هي قريبة من بلادنا ، عسى الله أن يحل بنا من بركته ،
فيعطف على قلب الملك ، ولا ينالني غضبه .

فقال الوزير إبراهيم : نعمَ ما تفعل ، ولكِ المثوبة على ذلك عند الله .
كان وزيرُ الملكِ درباسَ يلحظ حالة أنس الوجود فيرقُّ له ، ولحظ أن
هذا الوليَّ المجذوب المذهول ، جَذْبَتُهُ غشية ، وذهوله حرمانٌ من شيء
لا يعرفه أحد ، وأنه مريضٌ بأنسٍ لاحول له ولا قوة ، لا يجدُ من يعنى
بخدمته ، ولا يأبه لحاله ؛ فأراد أن يصحبه ليوصله إلى أهله وبلاده .

وكان ما لحظه الوزير على أنس الوجود من العوارض حقيقةً
لا افتعالًا ، فلم يكن انزواؤه عن رغبة ، ولا ذهوله عن تصنع وقصد .
كان قد أصابه ما أصابه عقب علمه بفقدان الورد في الأكمام ، وبعدم
العثور عليها ، صدمته الصدمة فأذهلته ، وغشية الغشية فتركته لا يفقه
أمرًا ، ولا يعي شيئًا ، وكان كلما مرَّ عليه أحد ممن في القصر ، يظن أنه
مستغرق في عباداته ، هائم في ابتهالاته ، فينصرف عنه ولا يزججه ،
ولا سيما أن الجميع كانوا مشغولين بسيدتهم .

فلما أعد وزير الملك درباس نفسه للسفر ، وذهب أتباعه لاستدعاء
أنس الوجود لمرافقتهم وجدوه في غشية فحماؤه إلى المركب ، ثم إلى
ظهور البغال وهو على ما هو عليه لا يحس ولا يعي .

فوكّل الوزيرُ به واحداً من خدمه ، يلاحظه ويعنى به أثناء الطريق حتى يفيق . وبعد ثلاثة أيام من السير جاء الخادم إلى الوزير وقال له :
لقد أفاق ، ياسيدى ، الرجلُ المريضُ .

فقال الوزيرُ :

اسقوه ماء السكر ، وأنعشوه بماء الورد .

وانتبه أنسُ الوجود بعض طول غشية ، وأفاق بعد طول سُبات ،
فتح عينيه وتلّفت حوله ، فوجد نفسه فوق محفّة يحملها بغل ، وتظلمها
مظلة تقيه وهج الشمس . فسأل فى صوت خافتٍ متهدّج :

أين أنا ؟

فتميل له :

فى صحبة وزير الملك درباس .

فقال :

ولماذا ؟

قالوا :

ليوصلّك إلى بلادك أصهبان .

قال :

لا حول ولا قوة إلا بالله !!

ثم تذكّر ما مرّ به ، وما كان فيه ، وما لاقاه وقاساه ؛ فقال :
احملونى إلى الوزير الكريم ، الطيب القلب ، الكريم النفس .

فقالوا :

سنذهبُ بكُ إليه عندما نخطُ الرِّحال .

وكان الركبُ قد أشرفَ على حدودِ مدينة الملكِ درباس ، وطارَت
الأنباءُ إلى المدينة تُنبئُه بقربِ وُصول الوزير ؛ فأوفدَ رسولا للملاقاة ،
وزوَّده بكتابٍ يقول فيه :

إذا كنتَ قد أتيتَ بأنسِ الوجودِ خفَّ لمقابلتي ، وإن لم تكن فعَد
من حيثُ أتيت ، فإنني صممتُ ألا ألقاكُ إلَّا به ، فاختر لنفسك .

فلما قرأ الوزيرُ رقعة الملكِ شقَّ عليه الأمر ، وضاق به الحالُ ، وتخير
فيما يفعل ، وإلى أين يتجه ؟ ! !

فأمر بالكفَّ عن المسير ، حتى يتدبر الأمر ، ولعلَّ الله يَهديه إلى
رأى يرضى به الملك ، ويكسب به عطفه .

فتزلَّ الرفاق ، وأقاموا مخيمين : أحدهما لسيدهم ، والآخر لهم .

وفيما الوزيرُ جالسٌ في خيمته ، وقد ضافت به الدنيا ، وانسدت في
وَجْهِهِ السُّبُل ، يُفكر في هذا الأمر الذي لا حيلة له فيه ، وفي مُعاقبة الملك
له في ذنب لم يحنه — دخلَ عليه أنسُ الوجود ناحلا ذابلا ، ضامر الجسم
يجر قدميه جرًّا ، وكأنما يقتلعهما من الأرض اقتلاعًا .

ولم يكن الوزير في حالة نفسية تسمح بمقابلته أنس الوجود ، ولا
بسؤاله عن حاله ، فأراد إقصاءه عنه وصرفه ، ولكنه عاد فتمهل ، ودعاهُ
إلى الجلوس ، لما رأى على وجهه من خطوط الألم ، وتباريح العذاب .

وسأله عن حاله وعما يُعوزُه .

فقال أنس الوجود :

إننى لا يعوزنى شيء يا سيدي . فقد غمرتني بفضلك ، وحبوتني بمطفك ، ولكن لماذا اصطحبتني معك ؟ ! وإلى أين تذهب بي ؟ !
فقال الوزير :

اصطحبتك لما رأيتُ من مَرَصك وضعفك ، فأردتُ أن أعود بك إلى بلادك حيث هي قريبة من بلادى .

فقال أنس الوجود :

وأين هي بلادُكم يا سيدي ؟

فقال الوزيرُ ، وقد طَفَرَتْ من عينيه الدموعُ فلم يَقوَ على حبسها :
إننا على حدودها ، ولكنني لا أملكُ أن أدخلها .
فتعجب أنس الوجود لقول الوزير وسأله :

ولماذا ؟ !

قال : لأنَّ الملكَ ناطقٌ بقضاء حاجةٍ ، فلم تُقَضْ ، وهو يُحرِّمُ على دخول المدينة إن لم أقضها ، وقد بذلت في سبيل ذلك جهدي ، وما سمعتُ حيلتي ، فلم أظفرُ بها .

فقال أنس الوجود :

وما هي ياسيدي حاجةُ الملك ؟ !

نظرَ إليه الوزيرُ تبدوهُ عينه ، ويقتحمُه نظَرُه ، وكأنه تُحدثه نفسه :

ما لهذا البائس المسكين وما طلب مني الملك ؟ ! ولكن : يضع الله سرّه
في أضعف خلقه ، فلملأ أجدّه عنده مخزجاً !

فقال له : سأخبرك خبري ، وأقصّ عليك قصّتي ، علّني أجدّه عندك
ما يزيل غمّي ، ويفرّج كربّي .

وأخبر وزيرُ الملك أنسَ الوجود بخبره ! وقصّ عليه قصّته ! وأعلمه
الآبِ حَيَاةَ له إلا بمدّ عُثُورِهِ على أنس الوجود ، ولا عودَةَ له إلى وطنه
إلا باستصحابه .

فقال أنسُ الوجود :

لا تخش شيئاً ، خذني معك إلى الملك ، وأنا أضمنُ لك مجيئ
أنس الوجود .

فنظر إليه الوزيرُ نظرةَ المتشكّك ، وقال :

ومن أين تأتي به ، وقد بحثُ عنه أنا وأعوانِي في كلِّ مكانٍ ، حتّى
في جَبَلِ الشُّكْلِ ، فلم نقفْ له على أثر ؟
قال : سترى إن شاء الله .

ولكن الوزير لم يقتنع ، وقال :

أحقُّ ما تقول ؟ !

قال :

نعم ، وأقسمُ لك يا سيّدي إنّه حق .

فتَهَلَّل وجه الوزير ، ونهَض فأصدر أمره لِرجاله لِلتأهُّب لِلْمسير
وَالدخول إِلَى المدينة .

ثم قَالَ لِأَنس الوجود : هَيَّا بِنَا ، وَإِيَّاكَ وَأَنْ تُسَوِّدَ وَجُوهَنَا .
وصل الوزير وَأَنسُ الوجود إِلَى المدينة ، واستأْذِنَ الوزيرُ عَلَى الْمَلِكِ ،
فلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قَالَ الْمَلِكُ لوزيره :

أَيْنَ أَنَسُ الوجود ؟

فَقَالَ أَنَسُ الوجود :

يَا مَوْلَايَ ؛ أَنَا أَعْرِفُ أَيْنَ أَنَسُ الوجودِ ! ! وَأَنَا كَفِيلٌ بِإِحْضَارِهِ
إِلَيْكُمْ مَتَى عَرَفْتُ السَّبَبَ فِي طَلْبِهِ .

حِينَئِذٍ أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِخْلَاءِ الْقَاعَةِ ، وَانْفِرَ بِأَنَسِ الوجود ، وَقَرَّبَهُ مِنْهُ ،
وَأَخْبَرَهُ خَبَرَ الْوَرْدِ فِي الْأَكْثَامِ .

وَانْتَهَى الْمَلِكُ مِنْ حَدِيثِهِ ، فَانْتَهَتْ مَعَهُ آلَامُ أَنَسِ الوجود وَمَتَاعِبُهُ ،
وَزَالَتْ عَنْهُ أَحْزَانُهُ وَأَتْرَاحُهُ ، وَعَمَرَ قَلْبُهُ بِالْإِبْتِهَاجِ وَالْفَرَحِ ، وَفَاضَ وَجْهُهُ
بِالسُّرُورِ وَالْبُشْرِ ، وَانْبَعَثَ فِي نَفْسِهِ الْحَيَاةُ وَالْأَمَلُ .

وَقَالَ لِلْمَلِكِ :

اِئْتَنِي بِشِيَابٍ فَاخِرَةٍ وَأَنَا آتِيكَ بِأَنَسِ الوجود .

فَأَمَرَ الْمَلِكُ لِأَنَسِ الوجود بِحُلَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ أَنْفَرِ الدِّيَابِجِ .

فَأَخَذَهَا أَنَسُ الوجود وَانْتَحَى نَاحِيَةً ، ثُمَّ ارْتَدَّاهَا ، وَخَرَجَ إِلَى الْمَلِكِ
أَنِيقَ الْبَزَّةِ بِهَيِّ الرُّوْنَقِ لَوْلَا مَا يَشُوبُهُ مِنْ نَحُولٍ وَذُبُولٍ . وَقَالَ لَهُ :

هأنذا ياسيدي الملك ! ! أنا طَلِبْتُكَ ، أنا الذي طَوَّفَ وزيرك عليه
ما طَوَّفَ ليعثر عليه فلم يجده ، أنا أنسُ الوجود .

ونظر إليه الملك في دهشة سرعان ما تحولت سرورًا وإعجابًا ، وقال :
أنت أنسُ الوجود ؟ ! أحقا تقول ؟ !

أجاب :

نعم يا مولاي ، فما أقول غير الحق .

فأراد الملك أن يستوثق من ذلك ، فسأله عن خبره وحاله ، فقص
عليه قصته وذكر له خروجه للبحث عن الورد في الأكام ، وما جرى له ؛
فتأكد الملك أنه هو ، وقال له :

إنك لأهل للورد في الأكام ، وإن الورد في الأكام لأهل لك .

فقال أنس الوجود :

وأين هي الورد في الأكام يا مولاي ؟ ! ومن لي بها وقد صنيت
من أجلها ؟ !

قال الملك :

هي هنا في قصرى ، وسأرسل الآن في طلب القاضى والشهود
ليعقد لك عليها في الحال .

وأمر الملك . فحضر القاضى والشهود ، وكبار رجال الدولة ، وعقد
لأنس الوجود على الورد في الأكام ! !

وأرسل الملك رسولا إلى الملك شامخ يخبره بما تمَّ على يديه .

وما كاد الملك شامخ يلم بمضمون رسالة الملك درباس ، حتى شمله فرح وسرور .

كان فرحاً شاملاً ، وسروراً مزدوجاً ، أن يتلقى نبأ العثور على عزيزين أثيرين عنده هما : أنس الوجود والورد في الأكام .

وأرسل من فوره إلى أبيها الذي كان في حالة يرثى لها منذ عودته من جبل الشكلى يزفُ إليه النبأ .

أما رده على رسول الملك درباس ، فكان هدايا قيمة ، وأحمالاً كثيرة ، أرسلها إليه إعلاناً لشكره له ، واعترافاً بفضله ، مصحوبة برسالة جاء فيها : « يا أخى ! حيث إن العقد كان عندك ، أرجو أن يكون الفرح عندي » .

فلما وصلت هذه الرسالة إلى يد الملك درباس ، قال : لا بأس في ذلك . وأمر من فوره فأعدت الهدايا للملك شامخ رداً على هداياه ، كما جهز لأنس الوجود والورد في الأكام من الطرائف واللطائف ما يشتهيهم كل عروسين .

وسار ركب أنس الوجود والورد في الأكام من مدينة الملك درباس إلى مدينتهما تصحبه ثلة كبيرة من الفرسان .

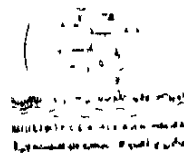
وكان يوم وصولهما إلى المدينة يوماً مشهوداً ، لم ير أهلها يوماً أعظم ولا أجمل منه ، فقد أقام الملك لذلك الاحتفالات والمهرجانات ، ونصبت السرايا ، وأقيمت الخيام ، ورفعت الرايات ، ونشرت الأعلام ،

وأضيئت الأنوارُ ، ومدت الموائد ، ووُزعتُ الهباتُ والصدقاتُ .
وصدحت الموسيقى ، وتبارى في الإجادة أهلُ الفنِّ والفناء ، واستمرتُ
المدينةُ في هذا الحلم المريح الجميل بضعة أيام ، زفت فيها الوردُ في الأكمام
إلى أنس الوجود .

وقال الوزيرُ لابنته وزوجها ، وهو يزورها يوماً بقصرهما ، آسفاً :
ساحبانى يا وَلَدَيَّ ، لقد كنتُ قاسياً عليكما ، فحملكما بقسوتى كثيراً
من المتاعب والآلام .

فقالت له ابنته ، وهى تمسك بيده تربت عليها ، وترنو إلى زوجها
بنظرة حُبٍّ وإعجاب :

لا تَقُلْ ذلك يا أَبَتِ ، لقد أنسَتنا غمرةُ الأفراح كلَّ ما فات ، فما
يكونُ فرحٌ إلا بعد شِدَّةٍ ، ولا يُشعرُ براحةٍ إلا بعد تعبٍ ، ولا تتمُّ
سعادةٌ إلا بعد شقاء .



General Organization of the Alex-
andria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

١٩٩١ / ٣٤٤٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3240-8	الترقيم الدولي

٩ / ٩٠ / ١٨٠

طبع بمطابع دار المعارف (م.ع.)

الف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمي إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

- | | |
|----------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهرزاد ودنيا زاد | ٧ - عبدالله البري وعبدالله البحري |
| ٢ - السندباد البحري | ٨ - أبو الحسن وجاريتته تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - علي بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافي | ١١ - علي الزئبق ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ١٣ - علي بابا |



دار المعارف

قرش حبيب
٢.٥٠